رحلات سندباد 8

فى جزيرة النسانيس

محمد سعيد العريان

رحلات سندباد

محمد سعيد العريان

8

فى جزيرة النسانيس

صلة الماضى

مرت السنون وشب سندباد بلا أب ولا أم .. فقد خرج أبوه فى رحلة من رحلاته التجارية، على أن يعود بعد بضعة أسابيع.. ومضت الأيام ولم يعد الأب. أما أمه فقد ماتت بعد مولده بأيام، حزنا على فراق أبيه الذى لا يدرى أن الله قد رزقه ابنا.

عاش سندباد سعيدا بين عمته "مشيرة" وأخته "قمر زاد" وكلبه "نمرود" فلما كبرر كشفت له عمته ما كان من شأن أبيه "شهبندر" فصصم على الرحيل للبحث عنه ليعرف أخباره فأهد العدة وقام بعدة رحلات بحثا عنه، طاف فى بلدان كثيرة، تعرف فيهاعلى أناس لاقى منهم الصديق والعدو. وصادفته أزمات ومتاعب، وتعلم منها الكثير عرف طباع شعوب وسمع الكثبير عن أخبار أبيه.

وفى أخر رحلاته صاحب مجموعة على ظهر سفينة رست على أحد الموانئ فأقام فى فندق تعرض فيه لمصائب، وعرف بعدها السر وراء هذه المصائب، وهو اختفاء كنز عظيم القيمة يغرى صاحب المطامع بالجريمة.

وعندما تهيأت الظروف لسندباد وعثر على الكنز. سرقه لصان.. ولاقى سندباد فى سبيله الموت غرقا.. فأنقذه رفاقه الذين كانوا معه على ظهر السفينة، وعلموا منه القصة فقرر الشيخ مساعدته للحصول عليه.

1

المد والجزر

قال سندباد :

قضينا نهارنا كله على شاطئ البحر؛ فلما غربت الشمس أشار الشيخ إلىّ لأتبعه، فتركت أبا الإسعاد مع حنظل وتبعتُ الشيخ؛ فلما صرنا بعيدين عنهما قال لى: اجلس أحدثك يا سندبا.

ثم مال علىَّ وهو يقول باسمًا : أنت شابً مُسعْدَ يا سندباد، فسكون ذلك الكنز بين يديك بعد ساعات، لا يشاركك فيه أحد من أولئك الطامعين الخونة؛ جزاء إخلاصك وصبرك!

فاستعجبت وقلت : لقد غاص ذلك الكنز فى الماء كما سنعت فمن أين أحصل عليه ؟ وكيف يصير بين يدىّ ؟

قال : انتظر وسترى ...

وكان الليل قد بدأ يزحف، فنظر الشيخ نحو البحر، ثم قال : بعد ساعة ينخفض ماء البحر كأنما تسرَّب فى مجار مجهولة، ويتكشَّف القاع حتى نرى ما كان تحت الماء ؛ فنهرف طريقنا إلى الكنز !

ومضت ياعة ونحن جالسان فى مكاننا نرقب السماء؛ ثم حطا الشيخ

نحو الشاطئ وخلفَّىْ جالسًا حيث كنت، ولكنى وجدتُ فى نفسى قوة تدفعنى إلى متابعته، فميشت وراءه حتى بلغت الشاطئ، ووقفت إلى جانبه أنظر إلى الماء؛ فما كان أشد دهشتى حين رأيت الماء قد بدأ ينحسر عن الشاطئ رُوَيْداً رويداً، فيتكشف قاعه دراعاً بعد ذراع؛ فخطا الشيخ خطوتين وهو يقول : اتبعنى يا سندباد !

فترددتُ برهة، كأنما خشيت أن يعود الماء إلى الارتفاع فيغرقنى؛ ولكنى تشجعت وخطوت خطوتين وراءه؛ ثم وقف الشيخ فوقفت ..

واستمر الماء ينحسر عن الشاطئ رويداً رويداً، واستمر القاع يتكشف ذراعاً بعد ذراع، والشيخ يخطو مبتعداً عن الشاطئ خطوة بعد خطوة، حتى صرنا على بعد مئة ذراع؛ فرفع الشيخ رأسه نجو الجبل، حيث كانت فتحة السرداب؛ ثم قال لى : انظر، أترانا قد وصلنا إلى مَرْمى الفتحة، وهل ترى أشرس لم يزل واقفًا هنالك !

فنظرت، ولكن ظلام الليل كان يكسو الجبل كله، فلم أر فتحة السرداب ولم أر أشرس؛ إن الظلام كثيف فلا أستطيع أن أرى ...

قال : حسبتُك أحدَّ منى بصراً يا سندباد !

ثم صمت برهة وعاد يقول : ولكنى أستطيع أن أجزم بأننا الآن على مَرمْى فتحة السرداب؛ فقد كنتُ أعدُّ خُطاى منذ بدأتُ السير ...

ثم مال الشيخ إلى اليمين فخطا خطوتين، ووقف لحظة، ثم نظر إلىَّ قائلاً : لو كنتَ حديد النظر يا سندباد كما أظن بك، لرأيت ذلك

الكنز قريباً منك؛ فانظر حواليك وتحت رجليك..

وكانت السماء صافية، فاستطعت أن أرى فى ضوء النجوم ما تحت قدمىّ وبعض ما حولى، فازددت تحديقاً لعلى أرى ذلك الكنز، وأنا أخطو خطوات بطيئة على حذر إلى الأمام، وإلى الوراء، وإلى يمين؛ وإلى شمال...

ولمحتُ على البعد شيخاً جاثماً، فتراجعتُ إلى الوراء خائفاً، ووثب بى الخيال إلى أشرس، فبدا لى كأنه هو الشبح الجاثم ...

ولمحنى الشيخ أتراجع، فقال لى : ماذا يا سندباد ؟

قلت : ذلك الشبح الجاثم هنالك، أظنه أشرس الخائن !

قال الشيخ ملهوفاً : أين ؟ فإننى لا أراه !

فتشجَّعت وتقدَّمت، واندافع الشيخ إلى حيث أشرتُ فسبقنى؛ ولم يلبث ذلك الشبح أن انكشف لأعيننا، فإذا هو " شئ " لا إنسان فلم يكد الشيخ يراه حتى ازداد اندفاعاً إليه وهو يقول : إنه الكنز ...

وسحرتنى تلك الكلمة ومنحتْنى قوة غير عادية، فأسرعت وراء الشيخ وأنا أردد بلا وعى: الكنز!..

وخُيِّل إلىّ فى تلك اللحظة أن الدنيا قد ازدادت نوراً، وأن نجوم السماء أشدّ لمعانًا وضياء مما كانت منذ لحظات؛ إذْ بدا المنظر لعينىّ فى تلك اللحظة واضحاً أشد وضوح، كأننا ماشيان فى ضوء النهار؛

فزادنى ذلك النور استبشارً وأملاً..

ولكن ذلك الاستبشار لم يلبث أن ذهب حين سمعتُ الشيخ يهتف فى فى جوف : القمر !

ثم رأيته يستدير عائداً نحو الشاطئ وهو يقول : اتبعنى سريعاً؛ لقد ظهر القمر يا سندباد، وعاد الماء يزحف نحو الشاطئ !

وأحسست فى تلك اللحظة كأن جيوشاً زاحفة تطاردنى وأنا أعدو وراء الشيخ؛ ولم أكن فى هذا الإحساس واهماً، فإنماء البحر قد بدأ يرتفع راحفاً وراءنا، وكان اندفاعه سريعاً وقويًّا حتى يئست من لإمكان بلوغ الشاطئ قبل أن تدركنا أمواجه الزاحفة...

ولو اننا تأخرنا دقيقة أو دقيقتين ولم نسرع إلى الشاطئ لغرقتُ وغرق الشيخ معى؛ ولكننا، تنبهنا قبل أن يغطى علينا الماء فيغرقنا، وأسرعنا

فنجونا ولم نكد؛ فما هى إلا لحظات بعد وصولنا إلى الشاطئ حتى عاد الماء إلى ارتفاعه، وعاد الموج إلى صخبه وعنفه، وعلا الزَّبد فوق سطح الماء كأنه فى شوء القمر فضة ذائبة...

وتذكرت – حين رأيت ذلك الزّبدَ الفضىّ – الكنز الذى تركناه تحت الماء، فكأنما خُيل إلىّ أن هذه فضَّته الذائبة !

ووقف الشيخ على الشاطئ يلهث، ووقفت إلى جانبه صامتاً، والأفكار تصطرع فى رأسى، وفى نفسى شعور عميق بالأسف !

ولم يلبث الشيخ أن استردَّ هدوءه وانتظمتْ أنفاسه، فوضع بده على كتفى وهو يقول فيم تفكر ياسندباد ؟

قلت : إننى أفكر فى ذلك الذى انحسر عن الشاطئ فجأة، كأنما تسّرب فى مجار عميقة تحت الارض؛ ثم عاد فارتفع فجأة، كأنما انحدر به سيل من وراء الجبل...

قال الشيخ : إن انحسار الماء عن الشاطئ يا سندبد لم يكن أمراً مبغتًا؛ فقد كنت أتوقَّعه قبل أن يكون؛ ولذلك صحبتُك إلى هذا المكان منذ ساعات، انتظاراً للساعة التى ينحسر فيها الماء فنخوض إلى الكنز؛ ولم يكن ارتفاع الماء فى البحر فيها الماء فنخوض إلى الكنز؛ ولم يكن ارتفاع الماء فى البحر مباغتًا كذلك ، فقد توقعَّته منذ لمحت القمر؛ ولذلك أسرعت عائداً إلى الشاطئ ودعوتك إلى الإسراع معى، لننجو قبل أن يغمرنا الماء فنهلك !

فقلت له : كيف عرفتَ أن ا لماء سينحسر قبل أن ينحسر،

فاستعددت لخوض البحر؛وكيف عرفتَأنه سيرتفع قبل أن يرتفع ، فأسرعت بالفرار ؟

قال الشيخ : ذاك هو الجزْر والمدّ يا بنى كما يسميهما علماء الجغرافيا فى هذا الزمان؛ وكل الذين يعيشون بالقرب من شواطئ البحار يلاحظون أن الماء ينحسر عن الشاطئ حين يغيب القمر، ويرتفع حين يظهر القمر، فيسمّون انحساره جزْراً، ويسمون ارتفاعه بعد ذلك مدًّا...

وعلى أساس ما أعرف من هذه الحقيقة دبَّرتُ أمرى للحصول على الكنز، ولكن المد فى هذه الليلة كان أسرع مما قدَّرت؛ ولكننا لن نُفلت الكنز، فنقضى يوماً آخر فى هذا المكان ، لنعاود المحاولة فى الليلة القادمة...

وصمت الشيخ برهة ثم قال : ولكنى أخاف تدبير أشرس؛ فإنى لا أعرف أين هو الساعة، لعله كان عند فتحة السرداب ينظر إلينا من حيث لا نراه، ولعله قد عرف بالمشاهدة ما عرفناه من سر الجزر والمد، فيسبقنا إلى الكنز !

وعاد الشيخ إلى الصمت وهو يقرض بأسنانه طرف شفته وقد استغرقه الفكر، ثم استأنف قائلا: لو كنت أعرف أين هو الساعة....

وقبل أن يُتم الشيخ قوله، برزر لنا من بين الظلام شبح، فارتمى على الشيخ قائلا : هأنذا !

2

ذئبان يصارعان

قال سندباد :

كان أشرس واقفاً فى الظلام على مقربة منا يسمع إلى حديثنا فلما سمع ما قاله الشيخ، اندفع إليه وارتمى فوقع، وجثم على صدره وهو يقول له : لن يكون الكنز لك ؛ لأنه كنزى، ولن يناله أحد غيرى!

ولم أجد من المروءة أن أترك الشيخ فريسة فى يد ذلك الشرير، فارتميت فوقه أضربه بجمع يدى دفاعاً عن الشيخ، ولكنه لم يلبث أن قام، ثم التفت إلىّ وهو يقول مهدِّداً : والله لأقتلنَّك !

ثم اندفع إلىّ اندفاع الوحش، فاجتمعت قوَّتى كلها فى رجلىَّ وأخذت أجرى، وأشرس يجرى ورائى؛ وكلما سمعتُ وقع خطاه خلفى أسرعت فى الجرى؛ ولكن خوفى منه أعمانى عن الطريق، وكان طريقاً كثير العثرات والحُفرَ، فلم أشعر إلى وأنا فى قاع حفرة منها؛ وبل أن أتدبَّ أمر رأيت ظلةً يثب إلى الحفرة، ثم وقعَ فى قاعها مثلى؛ ولكن سقتطة كانت عبفة، فإن جسده لم يكد يمس القاع حتى صاح صيحة شديدة ثم سك، فظننته قد مات، وانحنيت

فوقه لأعرف ماذا به، وقد نسيت كل ما كان بيننى وبينه من العداوة؛ ولكنى لم أكد ألمسه حتى أفاق وصاح صيحة أشد، فتراجعتُ عنه خائفاً وأنا أقول لنفسى : لماذا أسعى إلى الشرّ برجلىّ"

ولم تكن الحفرة عميقية كما ظننتُ فى أول الأمر، فاستندت بيدىَّ على جدارها وهممت أن أثب هارباً؛ ولكنى رأيت شبحاً يدنو من الحفرة وهو يقول بصوت مبحوح : من هناك؟

فظننتُ أنه الشيخ وقلت مطمئناً : أنا سندباد!

فلم أكد أقولها حتى ظهر لى شبح واضحاً؛ فإذا هو حنظل فقلتُ لنفسى قلقاً : لقد نجوتُ من شر لأقع فى شر مثله !

ولكنى اصطنعتُ الهدوء والطمأنينة وقلت فى صوت طبيعى : أنت حنظل ؟ لقد جئت فى اللحظة الملائمة؛ فأين أبو الإسعاد ؟

فقهقة ضاحكاً وقال : إنه بعيدٌ عنك فلن يبلغه صوتك !

وعرفتُ نغمة التهديد فى كلامه، ولكنى تجاهلت ذلك وقلت وأنا أثب من الحفرة : أدرك صاحبنا بالحفرة يا حنظل، فإنه جريح مرضوض العظم !

فأجابنى فى لهفة : الشيخ بالحفرة ؟

ولم ينتظر جوابى، إذ وثب إلى الحفرة وهو يظنه بها، بيعجِّل بالحلاص منه؛ ولكنه لم يكد ينزل حتى رأى أشرس، فثارت فى نفسه البغضاء، وهجم عليه وهو يقول : قتلنى الله إن لم أقتُلْك يا خائن !

ولم يلبثا أن تماسكا وعلا صياحهما؛ فقلت لتفسى : دع الذئب للذئب يأكله وانج بنفسك يا سندباد !

ثم أسلمت رجلىَّ للريح عائداً إلى الشيخ، فإذا هو مقبلٌ نحوى وفى وجهه أمارات قلق شديد، فاتدرنى قائلا فى لهفة : ماذا فعلت ؟ وكيف خلصت من أشرس ؟

قلت ضاحكاً : لقد خلصت من أشرس ومن حنظل جميعاً؛ فقد تركتهما متماسكين وقد أقسم كلٌّ منهما أن يقتل صاحبه !

قال الشيخ وقد زاد قلقه : وماذا جاء بحنظل إلى هنا وقد تركناه منذ ساعات مع أبى الإسعاد ؟ ..وأبو الإسعاد ماذا جرى له ؟

قلت : لا تخف عليه، فإنه – فيما أرى – يحسن الدفاع عن نفسه !

قال وهو يقترب من الحفرة التى يقتتل فيها اللصان: بل أنا خائف عليه يا سندباد، وأخشى أن يكون حنظل قد غدر به؛ فإن صاحبك أبا الإسعاد رجل ذو قوة، ولكنه طيب القلب يسهل خداعه !

وكان اللصان ما يزالان مشتبكين فى عراك عنيف، ولكن الشيخ هجم عليهما قائلا : كفى أيها الصديقان !

فأجاب كل منهما فى نفس واحد : بل دَعنى أقتل ذلك الخائن !

قال الشيخ وهو يوليهما ظهره : أسأل الله أن يحقق لكما ما تريدان !

قلت : أنتركهما يا عم ؟

قال وهو يبتعد : أو لم يقتتلا لانفرد كل منهما بواحد منا ليقتله !

وبلغنا الموضع الذى تركنا فيه أبا الإسعاد جالساً مع حنظل منذ ساعات، ولكننا لم نجده حيث كان، فأسرعنا إلى حيث كان الزورق مربوطاً، ولكننا لم نجده كذلك : فصرت أسنان الشيخ غيظاً ثم أردف : إن صاحبك أبا الإسعاد رجل فيه غفلة وحمُقْ، وأظنه قد استبطأ عودتنا فذهب

وانقطعنا عن إتمام الحديث سمعنا أصوات مجاديف تضرب الماء متتابعة فى نظام وهى تقترب منا، فقال الشيخ : أىّ شرّ يقترب منا الساعة يا ترى ؟ تعال نختبئ يا سندباد حتى نعرف ما شأن هؤلاء القادمين إلى هذا الشاطئ فى ظلام الليل !

3

عــواء كلب

قال سندباد :

اختبأنا فى ظل صخرة على الشاطئ ونحن نسمع أصوات المجاديف تقترب منا رُوَيداً رُوَيْداً، ثم سكتت أصوات المجاديف وسمعنا صوت رجلين يتحدثان. فعرفنا أن القادمين قد بللغوا الشاطئ؛ لإارهفنا آذاننا لنسمع حديثهم؛ فعرفنا صوت أبى الإسعاد، فخرجنا من مخبئنا مطمئنين واتجهنا إليه؛ وقبل أن ينتبَّه إلى وجودنا بالقرب منه صاح به الشيخ : ها نحن قد عثرنا بك قبل أن تعثر بنا !

فالتفت أبو الإسعاد نحونا، فرآنا وعوفنا؛ فاندفع نحزنا وهو يقول فرحاً : الحمدالله على سلامتكما!

وكان رفقاء أبى الإسعاد من أصحاب الشيخ، فازداد اطمئناناً وأمنًا، وازددات اطئناناً وأمنًا مثله؛ ثم قلنا لأبى الإسعاد : مذا ذهب بك وماذا جاء يا أبا الإسعاد، وقد تركناك مع حنظل ؟

قال لأبو الإسعاد : لقد كان حنظل الملعون على نية الغدر بنا؛ فلما تبينتُ نيته تظاهرتُ بالغفلة وأطعته فى كل ما كان يامرنى به؛

ثم تبينتُ أنه يريد أن يرمينى فى الهلاك ليفرغ لكما، إذ قال لى : لقد غاب صاحباك يا أبا الإسعاد، وأخشى أن يكون أشرس الشرير قد هبط إلى الشاطئ فرآهما ودبَّر هلا كهما؛ فاذهب فتسلَّق هذه الصخرة وانظر حواليك، لعلك أن تراهما فى ضوء القمر قريبين أو بعيدين !

وكانت صخرة معلَّقة، يمكن تسلُّقها ولا يمكن الهبوط عنها إلا بمعونة، فتحيرت برهة، ثم تظاهرت بطاعته وتسلقت الصخرة؛ فلما صرتُ فوقها رأيت فى عينيه نية الغدر واضحة، فأدرت أن أحتال لخلاصى وخلاصكما، فعتفت به من فوق الصخرة: سأنزل يا حنظل إن الرياح تعصف وتكاد تقتلعنى من مكانى لتقذفنى فى البحر !

قلت هذا ووقفت أترنَّح فوق الضخرة كالسكران، فضحك ضحكة خبيثة وقال لى : تشجَّع يا أبا الإسعاد، ثم انظر حواليك لترى ..

فشممت ريح التهديد فى صوته، ونظرت إلى جانبى فرأيت البحر يتدافع بأمواجه، فألقيت بنفسى بين أحضان الموج ..

قال الشيخ وهو يعض على شفته : لقد خاطرت بنفسك مخاطرة عظيمة يا أبا الإسعاد !

قال أبو الإسعاد : لم يكن فى الأمر مخاطرة يا سيدى، فأنا سبَّاحا ماهر؛ ولم يكن حنظل يعرف ذلك؛ فانصر عنى معتقداً أننى غرقت، ومضى ليدبِّر أمره؛ أما أنا فأخذت أضرب الماء بذراعىَّ حتى بلغتُ

مكان الزورق، فوثبت إليه، ثم عدتُ به إلى المدينة ألتمس رفقاء يعينوننى على تخليصكما من كيده..

*****

وقطعنا فى الحديث ساعة قبل أن نفكر فيما كان من أمر حنظل وصاحبه أشرس، ثم تذكرنا، فاتجهنا إلى حيث كانا ....

وكان انتشار الضوء يؤذن بقرب طلوع النهار، والنسيم الرطب يملأ نفوسنا نشاطاً وخفة، وكنا ستة نفر، فمشينا مطمئنين ممتلئسن ثقة وأملا ...

ولكننا لم نلبث أن وقفنا جميعاً؛ إذ طرق آذننا عواء ذئب قريب، وأخذنا نتلفَّت حوالينا فى اضطراب وذعر، ولكن أبا الإسعاد عاد سريعاً إلى الهدوء والطمأنينة، ونظر إلينا قائلا : أتخاف ونحن ستة ؟

ثم سبقنا على الطريق فتبعناه؛ وتردد عواء الذئب فى آذاننا مرة أخرى، فقال أحدنا: ليس هذا عواء ذئب واحد، إنه قطيع من الذئاب!

وفى تلك اللحظة رأيت منظراً عجيباً، فقد جَثَا أبو الإسعاد على ركبتييه وأخذ يعوى عواء الكلب : هَوْ هوْ، هوْ !

فتردّدت أصداء عوائه فى آذاننا ومن حوالينا كأنه عوأء كلب؛ فلولا أننى كنت أراه وأسمعه لما صدقت أنه صاحب ذلك العواء؛ ولكن الذئاب صدّقتْ، فلم يكد عُواؤه يبلغ آذانها حتى انطلقت هاربة ..

ثم بلغنا الحفرة، حيث كان حنظل وأشرس يتعاركان منذ ساعة، ولكننا لم نجدهما، ووجدنا ثيابهما فى القاع ملوثة بالدم..

4

فريسة الذئاب !

قال سندباد :

وقفنا صامتين ننظر إلى أشرس وحنظل ملوّثة بالدم، فلم نشك فى أن الذئاب أكلتهما !

ثم ابتعدنا عن الحفرة والحزنُ يملأ قلوبنا، وفى نفوسنا شعورٌ خفىّ بالخوف على أنفسنا من مثل ذلك المصير !

وأشرق علينا الصبح ونحن لم نزل نفكر فى أمرنا؛ فلما انتشر الضوء نظرتُ إلى الشيخ قائلا : أليس من الخير لنا أن نعود سالمين؟

فابتسم وقال : أتريد أن نعود بغير الكنز يا سندباد؟

قلت : ومنأين لنا الكنز وقد طغى عليه ماء البحر فلا سبيل إله ؟

قال : لقد طغى ماء البحر، ولكنه سينحسر عنه مرة أخرى إذا اء المساء وسطع القمر، كما رأيت أمس !

قلت : أنبقى هنا إلى المساء ونخاطر بأرواحنا من أجل الكنز ؟

فربَّت كتفى قائلا : أنت أشدّ خوفاً مما كنت أظن يا سندباد !

قلت : ألا نخاف الذئاب ؟

قال : وهل الذئاب بأنفسها فتعود إلينا ومعنا أبو الإسعاد ؟

حينذاك سمعت صوت أبى الإسعاد ينطلق من فمه مرة أخرى مثل عواء الكلب : هَوْ هَوْ، هَوْ !

ثم أرسل ضحكة مرحة وقال : إن الذئاب تخاف هذا العواء أكثر مما يخافها الناس؛ فاطمئنّ يا سندباد، فسأكفيك شرّها !

قلت ضاحكاً : أنت " نمرود " !

فضحك أصحابنا جميعاً وقد فهموا النكتة، أما أبو الإسعاد فلم يضحك؛ لأنه لم يكن يعرف " نمورد" ولم يسمع باسمه من قبل ..

وتذكرتُ نمورد فى تلك اللحظة ...

واسترسلتُ وراء خواطرى أحاول أن أتذكر أين فارقنى نمورد ومتى ولكن الشيخ أيعدنى عن الفكر حين قال لى : سنقضى اليوم هنا كما قضينا أمس؛ فإذا سطع القمر وانحسر الماء عن الشاطئ، خُذْنا إلى الكنز حتى نبلغه، فنأخذه، ثم نعود إلى المدينة ..

واتجهنا إلى الشاطئ، حيث أرسى أبو الإسعاد الزورق، ولكننا لم نكاد نمشى بضع خطوات حتى وقفنا بغتة؛ فقد رأينا على مّ البصر جثة إنسان، فأسرعنا إليها جميعاً جون أن نتبادل كلمة واحدة وكانت جثة أشرس.

فلما اقتربنا منها سمعنا انيناً خافتاً، فعرقنا انه لم يزل حيًّا؛ فلم نذكر فى تلك اللحظة إلا أنه إنسان مثلنا يحتاج إلى معونة ...

وكنت أسرعم إليه، فجثوت إلى جانبه لأعرف ماذا به،فإذا هو جريح مرضوض العظم لا يقوى على حركة ولا كلمة ولا إشارة؛ولم يكن يستر جسده إلا قميص ممزق يكشف عما وراءه من جروحه؛ فلم أكد ألمسه حتى انتبه ونظر، ثم قال : سندباد ؟ الرحمة والعفو يا سندباد !

قلت : ماذا بك يا أشرس ؟ واين الثياب التى كانت عليك؟

قال : رجلى مرضوضة منذ سقطتُ فى تلك الحفرة، وثيابى هَبَرَها الذئب ليأكلنى، فانخلعتُ منها وفررت هارباً؛ ولكن الذئاب الأخرى أدركتنى، فأوقعتنى وأنشبت أنيابها فى جسدى، ثم أنقذنى منها كلب يعوى، فهربتْ عنى وتركتْنى؛ وأنقذني عُواؤه من التمزيق !

وكان أبو الإسعاد قد أدركني فجلس إلى جانبي يستمع إلى

حديث أشرس؛ فلما رآه يعترف بجميل ذلك الكلب، ابتسم ثم أرسل من فمه عواء مُتصلاً: هَوْ هَوْ هوْ... هوْ !

فحدّق أشرس في وجهه لحظة ثم قال: أنت؟ إنني مدين لك بعمري يا أبا الإسعاد، فسامحني ما كان مني إليك !

ثم غُشي عليه مرة أخرى؛ فأخذت أعالجه ليفيق، وانصرف إليه وحده تفكيري وتفكير أصحابي، فلم ننتبه إلا على صوت يهتف من ورائنا: دعوه يموت؛ إنه شرير خائن لا يستحق الحياة !

فالتفتنا جميعاً إلى وراء، فوقعت أعيننا على حنظل؛ وكانت رؤيته مفاجأة أخرى، إذ كنا نعتقد كذلك أن الذئاب قد افترسته؛ ولاحظت أنه – مثل صاحبه – ليس عليه إلا قميص؛ فقلت له: أين ما كان يسترك من ثياب يا حنظل؟

قال : انخلعت منها وتركتها بين أنياب الذئب، وقلَّدني هذا الجبان فنجا بجلده!

ثم هجم على أشرس ليقتله، فمنعناه؛ وانتبه أشرس من غشيته في تلك اللحظة، فأن أنيناً خافتاً، ثم هتف ضارعاً: أنقذوني ينقذكم الله!

فأخذتني الشفقة عليه، وجلست إلى جانبه أحاول أن أعالجه؛ والتفّ أصحابي حول حنظل ليمنعوه أن يقترب ...

ولم يكن معي قطن، ولا شاش، ولا مرهم، ولا مطهِّر، ولا ماء

نقي؛ ولكني استطعت برغم ذلك أن أخفف بعض آلامه، فقد أبعدتُ قميصه عن مواضع الجروح، حتى لا يحتك بها فيتألم؛ وأزلت ما كان متجمداً عليها من الدم بلطف، ثم أسندت ساقه المرضوضة إلى صخرة بجانبي؛ لأمنعها من الحركة فتخفّ بعض آلامه ...

وكان بعض أصحابى قد ابتعدوا بحنظل، وبقى اثنان منهم إلى جانبى، فطلبتُ منهما أن يعاونانى على حمله إلى الشاطئ؛ ثم غسلت جروحه بماء البحر، وجعلت عليها رباطاً من قميه، ثم حملناه إلى الزورق فأليقناه فى قاعه؛ وعدنا إلى الشاطئ لننتظر سائر أصحابنا ..

وكنا نحفظ طعامنا فى قاع الزورق، فلم يكد يشم ريحه حتى زحف إليه، ثم كشف عنه عطاءه وأخذ ياكل، دون أن يفكر فى حق الذين أنقذوه من الموت، ليقّدم دليلا لنا على أن اللص لا ينسى " حرفته " حتى اللحظة الأخيرة من عمره!

ولم يلبث أصحابنا أن جاءوا وليس بينهم حنظل؛ إذا ابتعد مُغضبًا فلم يتبعوه؛ فانحدرنا إلى الزورق وقد عاد إلينا الشعور بالجوع، وتذكرنا الطعام، ولكن بعد أن ذهب أشرس بأكثره؛ فلما رآنا مقبلين عليه كفّ عن الأكل واستقلى فى مكانه وهو يقول : إننى عطشان فهل عندكم ماء عذب ؟

قال أبو الإسعاد وهو يمد يده إليه بقلة ماء مبرّد : خذ، لا بارك الله لك فى طعام ولا شراب!

فقال : ارفعوها إلى فمى، فإنى لا أقوى على حملها !

فحملها أبو الإسعاد إلى فمه فسقاه، ثم عاد إلى ما بقى من الطعام فقسمه بيننا، وكان نصيبى لُقيمات قليلة ولكنها، فأكلت وشربت؛ وحمدت الله، ثم شعرت بأجفانى تثقل فكوّعت إلى جانب أشرس؛ ولكن أبا الإسعاد لكزنى قائلا : ليس هذا وقت النوم !

وقال الشيخ موافقاً : نعم فهيا إلى الشاطئ ودع أبا الإسعاد فإن عليه واجباً آخر....

قأطعتُ وبى غيظ شديد، ووثبتُ إلى الشاطئ، ووثب أصحابنا جميعاً، فلم يبق فى الزورق غير أشرس وأبى الإسعاد؛ فلما صار وحيداً مع أشرس فى الزورق، حل رباط الزورق أدار دفتَّه، ثم أخذ يجدِّف مبتعداً عنا، ولم يلبث أن اختفى عن أعيينا؛ فنظرتُ إلى الشيخ مستفهمًا، فقال : سيذهب بأشرس، ثم يعود إلينا بطعام وماء !

وجلست إلى جانب الشيخ فى ظل الصخرة التى كنا نختبئ خلفهامنذ ساعات، وجلس أصحابنا حوالينا ..

وثقلتْ أجفانى مرة أخرى، فقلت للشيخ : هل أستطيع أن أنام الآن ؟

فابتسم الشيخ قائلاً : اذا أردت فنم ..

أن أطوى ذراعى تحت رأسى وأستسلم لنومة هنيَّة؛ ولكنى تذكرت الذئاب التى كانت تعوى، فطار النوم من عينّ، وقلت للشيخ : أكان من الضرورىّ أن نبقى ويذهب أبو الإسعاد ؟ ألم يكن

من الخير أن يذهب غيره ويبقى هو ليطرد عنا الذئاب ؟

قال الشيخ باسماً : اتعنى هذا ؟ لا تخف؛ فقد تعلَّمنا جميعاً كيف نكون " نماريد " حين تعوى الذئاب ...

ولم يكد ينتهى من كلمته حتى سمعتُ حواليّ من كل جانب عُواءً متصلاً منتوِّع النغم : هَوْ هَوْ هَوْ ...

كأنما أغار علينا فجأة قطيع من الكلاب ينبحا؛ فأزعجتْنى المفاجأة، ولكنى لم ألبث أن ضحكت فأغرقت فى الضحك، حين عرفت مَنْ أولئك النماريد ! ...

5

وجدتُ الكنز !

قال سندباد :

نمتُ نوماً عميقاً، فلم أفتح عينىّ منذ توسَّدتُ ذارعى فى الصباح حتى سمعت من ينادينا وقد اصفرّت الشمس للمغيب؛ وكان الذى ينادينا هو أبو الإسعاد وقد عاد من رحلته؛ فسألته: أين ذهبت بأشرس ؟

قال وهو ينظر حواليه: حدّثونى أولاً عن الشيخ؛ فإنى لا أراه بينكم!

فنظرتُ حوالىّ مثله ونظر أصحابنا جميعاً، فلم نر الشيخ؛ فقلقت لغيابه؛ وزاد قلقى حين تذكرت الذئاب العاوية. فهببت واقفاً وأنا أوقول: هيا يا أصحابى نبحث عنه، فإنى أخاف عليه عُدوان الذئب !

قال أبو الإسعاد : الذئب !

ثم أخذ يُرسل نت فمه عُواءً متصلاً : هَوْ هَوْ ....

فعوى أصحابنا جميعاً هَوْ هَوْ هَوْ ....

فلم نلبث أن سمعنا عواء يجيبنا من بعيد هَوْ هاو ...

فلم يكد أصحابنا يسمعون ذلك العواء حتى ارتعبوا وكفُّوا عن عوائهم، واتجهوا نحو الزورق فارِّين، غيرى وغير أبى الإسعاد ...

ولم يكن بقائى عن شجاعة، وإنما فى وقع ظنّى أن هذا العواء الذى يطرق أذنىّ من بعيد ما هو إلا صَدىً العواء الذى يرسله أصحابنا؛ ولكن أصحابنا كفُّوا ولم يكف ذلك العواء؛ فخاب ظنى، وامتلأتُ مثلهم رعباً !

ولكن أبا الإسعاد نادانا وهو يضحك : عودوا أيها الشجعان إنما هو شيخكم يجاوبكم بعوائه لتطئنوا ...

وكان الشيخ قد صحا قبلنا من نومته، فتركنا نياماً وذهب يجوس خلال الشاطئ مستطلعًا؛ فلما سمع عواءنا من بعيد فهم أننا نناديه، فعوى مثلنا ليشعرنا بمكانه؛ ولم يلبث أن عاد إلينا . . .

فلما غربت الشمس قال لى الشيخ: قد حانت الساعة فاستعد ...

وفهمتُ من قوله أنه يريدنى وحدى؛ فشعرتُ بالقلق، ولكنى لم أجسر على الاعتراض ...

ثم نظر الشييخ إلى أبى الإسعاد وأصحابه فقال : ستنتظروننا هنا حتى نعود، وأرجو ألا نغيب عنكم طويلا . . .

ثم وضع يده على كتفى وهو يقول : هيا يا سندباد ...

فانقدتُ له طائعًا، واتخذنا طريق الأمس متجهين نحو الشاطئ البعيد، حيث رأينا الكنز مغروزاً فى قاع البحر ..

ووصلنا إلى حيث أردنا، وابتدأ الجزر، وأخذ الماء ينحسر عن الشاطئ، فخضْنا وراءه لنظفر بالغنيمة قبل أن يعود الماء إلى الارتفاع ...

وكان طريقنا واضحًا معروفًا؛ فقد عرفنا منذ الأمس مكان الكنز؛ ولكننا لم نكد نخوض إليه نصف المسافة حتى رأينا ظلا يتحرك على الماء؛ فوقفت ووقف الشيخ برهة لا نتكلم، ثم أستأنفنا السير فى شجاعة، وقد وقع فى ظننا أن ذلك الظل الذى رأيناه ليس إلا وهمًا ..

لكن الظل لم يلبث أن ظهر لأعيننا واضحصا؛ ثم زاد وضوحاً؛ فإذا هو إنسان، ثم اتّضح وبان فإذا هو حنظل الشّرير؛ وكان يقصد مثل قصدنا ليستولى على الكنز ..

وكنتُ أتوقع كل مفاجأة إلا هذه المفاجأة، فتسمَّرت رجلاى فى رمل القاع من شدة الخوف، ولكن الشيخ شدَّنى من ذراعى وهو يقول : أسرع؛ يجب أن يكون اثنان أكثر شجاعة من فرد!

واندفع الشيخ فى سرعة عجيبة وهو يجرنى وراءه، وكان حنظل مندفعًا مثلنا إلى حيث نقصد ..

ولم يكن من المعركة بُدّ، فاشتبك الشيخ وحنظل، وتماسكا يتضاربان؛ وصاح بى الشيخ وهو يحتضن خصمه ليتجنب ضرباته : لا تشغل نفسك بنا ياسندباد، أسرع أنت إلى غايتك !

فتركتهما واقفين يتصارعان على الرملة الرّطبةة وأسرعتُ إلى الكنز ...

ولم يكن انتزاعه من مكانه صعبًا، فحملته على رأسى ثم استدرتُ لأعود؛ فلما اقتربت من مكان المعركة سمعت الشيخ يصرخ فىّ : أسرع إلى الشاطئ ودَعنا؛ فقد عاد المّ !

فأخذت اعدو بحملى نحو الشاطئ، وكأنما يطاردنى مارد جبار فما بلغتُ الشاطئ حتى كان الماء ورائى كالطّوفان، وقد اختفيت وراء أمواجه الصاخبة جثة الشيخ وجثة حنظل جميعاً ....

6

ثمن الكنز !

قال سندباد :

لقد ظفرتُ بالكنز ولكنى فقدتُ شيخى؛ فما أفدح الثمن وأكبر الخسارة !

قلت هذا لنفسى وأنا واقف على الشاطئ أرقب المدّ الزاحف، وقد غاب الشيخ وحنظل عن عينىّ وابتلعهما البحر فى جوفه العميق ...

وتمنيت فى تلك اللحظة أننى لم أظفر بالكنز ولم أفقد الشيخ؛ ولعنتُ حنظل والأيام التى جمعتنى به !

ثم بدا لى أن أسرع إلى أصحابى فأخبرهم، لعل لهم حيلة فى إنقاذ الشيخ؛ ولكن أين هو لينقذوه، فإنى لا أرى شبحًا ولا ظلا، وليس أمامى إلا الأمواج المتلاطمة تحجب كل ما وراءها من صور الأحياء والموتى !

ونسيت من شدة الحزن أن احمل كنزى، وكنت قد وضعته إلى جانبى على الشاطئ لأستريح من حمله لحظات، فلم أتذكره إلا حين قطعتُ نصف الطريق إلى أصحابى، ولكنى لم أكد أهمّ بالعودة إليه لآخذه حتى طرق أذنّى عواء الذئاب، فأخذت أعدو خائفًا وقد نسيت

الكنز والشيخ وكلَّ ما كان يدور فى رأسى منالخواطر، فلم يبق فى نفسى شئ غير الرغبة فى النجاة بحياتى . . .

ووصلت إلى أصحابى وجسمى يتصَّبب عرقًا؛ فلم أكد أستشعر الأمان برويتهم حتى ارتميت بينهم وأنا أقول : الذئاب !

فسمتُ صوتًا يهتف بى من جانبى : أين الكنز يا سندباد ؟

فنظرت إلى محدثى فإذا هو الشيخ نفسه؛ فلم أستطع لدهشتى جوابًا ولا تحريك شفة . . .

وعادالشيخ يسألنى ومُلحًّا : أين الكنز ؟

قلت : أنه هناك على الشاطئ !

فأجابنى منكراً : تركته لحنظل يأخذه غنيمة باردة ؟

ثم اندفع يجرى وهو يقول : والله لا يأخذه ولو هلكتُ دونه !

فرأيتنى أجرى وراءه بلا وعى وأنا أقول مثله : والله لا يأخذخ !

وأخذ أصحابنا يجرون وراءنا . . .

ووجدنا الكنز حيث تركته، فحمله الشيخ فرحًا، ثم عدنا؛ وكان عواء الذئاب يطرق آذاننا من بعيد، ولكنى لم أكن خائفًا، فقدكان معى "نماريد " كثيرون لا تجرؤ الذئاب العاوية على الظهور لهم !

ووصلنا إلى حيث كنا، فهممنا بالجلوس؛ ولكن الشيخ صاح بنا : لقد انتهت مهمتنا فلا بقاء لنا؛ هيا إلى الزورق!

وكان الزورق على مقرربة منا؛ فقصدنا إليهَ واتخذنا مقاعدنا،

وأخذ أبو الإسعاد يجدف مبتعداً عن الشاطئ ..

وكان المدّ فى أعلى درجاته، والأمواج تتواثب حوالينا حتى تكاد تبتلعنا، وأبو الإسعاد مجدّ فى التجديف لا يكاد يفكر فى شئ من مخاطر هذه الرحلة الجرئية فى ظلام البحر الهائج؛ وكان الشيخ إلى جانبى، وقد أسند ذراعه إلى الكنز الذى كاد يفقد حياته فى سبيلة؛ فتذكرت المعركة العنيفة التى كانت تدور منذ ساعة بينه وبين حنظل تحت الماء؛ فقلت له : بالله يا سيدى كيف نجوت ؟

فنظر إلىّ نظرة الحنان، وأجاب : أخفتَ علىّ أ، أغرق يا سندباد ؟ نحن حيتان البر يا سندباد، فلا تُغرقنا أمواج البحر !

قلت : ولكن كيف نجوت وسبقتنى إلى ذلك المكان ؟

قال : إننى لم أكد أطمئن إلى نجاتك حتى أفلتّ من قبضة حنظل ثم أخذت أسبح تحت الماء متجهاً إلى حيث كان أصحابنا، وتركتُ حنظل يسبح فى اتجاهك؛ إذ كان الحصول على الكنز كلّ همه . . .

قلت : هل كان يتبعنى ؟

قال : نعم، ولكنه فَقَد أثرك لأنك وقفت طويلاً على الشاطئ، ثم اتخذت طريقًا غير طريقه؛ فنجوت ونجا كنزك .

قلت : إنه كنزك يا سيدى؛ فقد كدت تبذل فى سبيله روحك !

قال : صَهْ، لا أريد أن يسمعك أحد تقول هذا . . .

وكنا قد وصلنا فى تلك اللحظة؛ فرفع أبو الإسعاد مجدافه من والماء وتهيّانا لمغادرة الزورق إلى البر . . .

ثم أخذنا طريقنا إلى فندق سندباد . . .

وقضينا ليلتنا بالفندق، وكان نومنا عميقاً ولكنه مزدحم بالأحلام فلما أشرق الصبح تهيأنا للرحيل؛ إذ كان بقاؤنا بعد اليوم فى هذه المدينة محفوفًا بالمخاطر !

قال أبو الإسعاد : اتتركوننى لهذه المخاطر وحدى وتذهبوا ؟

قال الشيخ : بل تصحبنا إلى تمام رحلتنا إن أردت . . .

قال أبو الإسعاد : قد أردت فهيّا . . .

" لقد نجونا من شر تلك المدينة الملعونة، ومن كيد حنظل وأشرس وظفرنا بالكنز؛ فلنذهب إلى حيث يشأ الله، مبتعدين عن تلك المدينة وما فيها ومن فيها؛ فليس بنا حاجة إلى البقاء بها بعد اليوم . . ."

قال الشيخ هذا؛ فقلت له : ولكن لى فى المدينة فندقاً مشهوراً باسمى، اشتريته بمالى، وبذلتُ فى العناية به كل جهدى؛ فلمن أتركه بعدى ؟

قال ضاحكاً : يكفيك أن يبقى اسمك فى المدينة منقوشاً على مدخل ذلك الفندق، ليكون تذكاراً للأيام التعسة التى قضيتها فى المدينة؛ وقد حصلت من هذا الكنز على أكثر ممن دفعتَ ثمنًا لذلك الفندق

فاتركه لصاحبه ولا تكن طماعاً !

وكان لودّى أن أبقى فى المدينة أياماً حتى أودّع من عرفت فيها من الأصحاب، وأسّوى ما كان بينى وبين بعض أهلها من الحساب ولكنى انقدت للشيخ طائعًا .

وكان المركب الكبير مرسيًا على الشاطئ، فركبناه، ثم حللنا قلوعه وأدرنا دفّته، فانطلق بنا فى عرض البحر سريعًا؛ إذ كانت الريح مساعده والجو صحواً، فما هى إلا ساعة وبعض ساعة حتى ابتعد الشاطئ عن عيوننا جميعاً فما نرى إلا الماء والسماء . . .

ولم أكد أملأ صدرى من نسيم البحر العليل، حتى ثقلت جفونى وعلبنى النوم، فاستقلييت فى مكانى ورحت فى نوم عميق . . ز

واستيقظت قُبيل العصر منشرح الصدر، فاستويتُ جالسًا بين أصاحبى، ثم قلت : ألا نأكل ؟ فإننى اشعر بجوع شديد !

فأجابنى الشيخ : بلى سنأكل جميعاً؛ وسيكون طعامنا شهياً هنيئًا !

ثم أشار إلى بعض أصحابنا فقاموا، ثم عادوا وبين أيديهم طعام، فابتدرْنا إليه جميعًا ونحن نمرح ونضحك؛ وكان كما قال الشيخ طعاماً شهيًّا هنيئاً . . .

فلما فرغنا من الطعام غسلنا أيدينا من ماء البحر، ثم استدرنا حلقة نتبادل الأحاديث والذركايات حتى مالت الشمس للغروب، فانتصب الشيخ وافقاً، ثم أظل عينيه بكفه وهو ينظر نحو الأفق،

وعاد إلينا يقول : إذا ظلت الريح فى اعتدالها فإننا سنصل إلى جزيرة النسانيس قبل ظهر الغد!

قلت : جزيرة النسانيس ؟ وما حاجتنا إلى النسانيس وجزيرة النسانيس ؟

قال : لا حاجة بنا إليها، ولكن بها إلينا حاجة لن تنالها !

فقلقت وقلت : وأى حاجة للنسانيس عندنا ؟

فالفت الشيخ إلى أحد أصحابنا وقال له حدِّثه يا باقر . . .

7

جزيرة النسانيس . . .

قال سندباد :

نظرتُ إلى باقر، فإذا وجهه أصفر مثل الكُرْكم، فزاد بى القلق وقلت : إننى لا أكاد أفهم ما أسمع، لقد رأيت بعض النسانيس خلال بعض الرحلات؛ فرأيتها نوعاً من الحيوان يشبه القرود، ولكنها أصغر حجماً وأقل حيلة وأكثر حركة؛ وبعض الناس يقتنونها فى بيوتهم كما تُقتنى الكلاب والقطط، فيجدون فى اقتنائها أنسًا . . .

قال الشيخ : إن النسانيس نوع من الخَلْق غير ما تصف يا سندباد . . .

فقال بعض أصحابنا : بل هى نوع ممسوخ من البَشَر !

قال باقر : بل هى نوع ممسوخ من الشياطين، عليها اللعنة !

ومضى باقر فى حديثه يقول : لم أكن أعرف من النسانيس إلا ذلك النوع الذى يصفه سندباد، ولم يخطر ببالى أن هناك نوعاً آخر من الخلق اسمه النسانيس كذلك، حتى رمت بى المقادير إلى تلك الجزيرة وحيداً، بلا زاد ولا متاع ولا سلاح أدفع به عن نفسى الأذى؛ وكنت أركب سفينة ضلت طريقها بين الأمواج، ثم عصفتْ بها العواصف

فانقلبتْ بمن فيها من الركاب، فأخذتُ أسبح على غير هدى حتى بلغت اليابسة، فحمدت الله على سلامتى، وجلست على الشاطئ أستريح برهة، وإذا شئ لا هو من الناس ولا من الحيوان يَمْثُل بين يدىَّ ويقترب منى، فارتعبت رعباً لم أرتعب مثله فى حياتى، ولم يكن سبب رعبى إلا منظر هذا المخلوق الماثل أمامى . . .

كان شيئاً طويلاً نحيلاً مبطوطاً كأنه شقّ نخلة، له عين واحدة فى جبهته، يد واحدة فى أعلاه، ورجل واحدة فى أدناه، وعلى رأسه المبطوط شعر كريش الهدهد؛ أما فمه فكان مشقوقاً من أعلى إلى أسفل؛ وكان مشيه عجباً، فهو يخطو كأنه يثب؛ وكانت قدمه كخف البعير : عريضة مفلطحة ليس فيها أصبع ولا حافر؛ كأنه واقف فوقها على قاعدة تمثال . . .

فلما وقعت عليه عينى، تخيّلت إنيانًا فلقتين فهذا

فلقه منه؛ ثم رأيته يقترب منى ويفتح فمه امشقوق من أعلى إلى أسفل؛ فاستعذتُ بالله من الشيطان الرجيم وسألته السلامة؛ ثم أخذت أزحف إلى الوراء مبتعداً عنه، فلما احس حركتى وثب وثبة فصار ظلّه علىّ؛ فأفلتْ من بين شفتّى صرخة رعب، فما كان أشد دهشتى حين رأيت له أذنين فى جانبى وجهه تتحركان كما يتحرك جناحا الطائر؛ ولم أكن قد لحظتُ من قبل هاتين الأذانين، فعجبت وقلت لنفسى: ما أعجب هذا ! غن كان شئ فيه مفرد، من يد، ورجْل، وعين، إلا الأذنين فإنهما اثنتان؛ فلماذا ؟ وهل هو إنسّ أو جنّى أو حيوانٌ وحشىّ ؟

وكان لم يزل واقففاً امامى وأذناه تتحركان، ثم وقفتْ أذناه عن الحركة، وانفتح الفم المشقوق فى وجهه؛ وسمعت صوتًا غريباً آتيًا من ناحيتع يقول لى : بماذا تحدثٌ نفسك !

فعلمتُ أنه صوته؛ فازداد هجبى، وقلت له : قل لى بالله أأنت شيطان من الجن أو وحش من الحيوان أو أنسىّ من الناس ؟

فسمعته يقول : لست شيطانًا ولا وحشًا ولا إنسيًّا؛ أنا النسناس !

قلت : ماذا ؟ إننى أعرف النسانيس، وهى أخت القرود الصغيرة !

فسمعتُ قهقهة عاليه، ثم رأيته يثب نحوى؛ فهببت واقفًا لأهرب من وجهه، ولكنى لم أكد أخطو خطوتين حتى امتلأ المكان حولى بطائفة من النسانيس أمثله؛ لكل منهم عين واحدة، ويد واحدة، ورجْل واحدة، وأذنان تتحركان فى جوانب وجوههم مثل أجنحة

الطير؛ فلم أجد مهرباً منهم، ووقفت بينهم خائفاً مرعوباً، تنبض كل عضلة فى جسمى من شدة الخوف؛ فاستدروا حولى كالحلقة ثم اقترب منى أحدهم وشدّنى من ذراعى. ثم مضى بى إلى حيث لا أدرى، وقد سبقَنا منهم جماعة وتأخر عنا جماعة، وأنا من شدة الخوف لا اكاد أقدر على المشى . . .

وما زالوا يمشون بى حتى وصلنا إلى ساحة واسعة قد بُنيتْ فى وسطها دار، فقادونى إليها، فعلمت أنها دار رئيسهم؛ ولم يكن لتلك الدار باب كأبواب دورنا، ولكن فى جدارها شقًّا مستطيلاً لا يزيد عرضه على شبر وبعض شبر؛ فلم يخطر ببالى أن ذلك الشق المستطيل الضيِّق هو باب الدار إلا حين رأيتهم يتجهون نحوه ليدخلوا،

منهم من دخل بغير عناء، لأن أجسامهم مبطوطةة لا يزيد عرضها على الشبر؛ ثم جاء دورى لأدخل؛ ولم يكن يخطر ببالهم أن ذلك الباب يضيق عن جسمى، فدفعونى إليه دفعاً بقوة، فدخلت بكتف وذارع، ثم انحشر بطنى فلم ينفذ، وامتنع علىّ الدخول؛

فحسبونى ممتنعاً بإرادتى، فأخذوا يدفعوننى بعنف وغلظة؛ فازددتَ حَشْرة فى الباب حتى كادت روحى تزهق، ولكن جسمى لم ينفذ، فلما رأونى كذلك كفوا عن دفعى بأيديهم ووقفوا يتشاورون فى أمرى . . .

ثم أخذاوا يجذبوننى من ذارعى ليُخوجوا ما دخل من جسمى؛ فلم أستطع أن أخرج ولم يستطيعوا إخراجى؛ وكان الذين فى الداخل لا يعرفون أن الذين فى الخارج يجذبوننى، فاستمروا يجذبوننى؛ وهكذا وقفت فى ذلك المضيق بين قوتين تتجاذبانى : قوة فى الداخل تجذبنى ومن ذارع لأدخل وقوة فى الخارج تجذبنى من ذراع لأخرج، وأنا محشور الجسم لا أملك دخولاً ولا خروجاً ولا صوتً ولا حركة؛ ثم لم ألبث أن فقدت وعى من شدة آلام الجذْب. . .

ثم أفقت فرايتنى محشوراً حيث كنت، وقد كفُّوا عن جذْبى وتركونى . . .

فلما أيقنتُ أننى وحيد فى المكان، أرهفتُ أذنىً، فلم أحس حولى حركة ولا صوتاً؛ فأيقنت أنهم فى مكان بعيد، وعاودنى الأمل فى النجاة؛ فقدحتُ زناد فكرى لأستنبط حيلة أخلص بها من هذا الضيق . . .

وشعرت بقرصة مؤلمة فى ساقى فهممت أن أحك مكان تلك القرصة؛ فلم تصل إليه ذارعى؛ ولكنى تنبهتُ إلى أن ذراعىمطلقتان، لإأخذت أحفر بأطفار يدىّ فى الجدار الذى يضغط على بطنى، لعلى أستطيع أن أنزع منه حجراً أو أحجاراً فأوسِّع لنفسى؛ وما هى إلا لحظات حتى استطعت أن أنزع حجراً ثم حجراً ثانيًا. . .

وخف الضغط على بطنى، فازددت نشاطاً وقوة، ونزعت حجراً ثالثًا، فاستطعت أن أتحرك؛ ولكنى لم أكد أخرج بجسمى من المضيق حتى انهار جانب من الجدار؛ فأسرعت بالابتعاد قبل أن ينقض البناء كله على رأسى فيقتلنى !

لانهيار الجدار صوت شديد سمعه النسانيس من بعيد، فأسرعوا إلىّ ليروا ماذا جرى، ولكن الغبار الكثيف كان يوارينى عنهم، وكانوا مندفعين بسرعة نحو الدار فلم يرونى؛ وبذلك أتيحت لى فرصة للهرب؛ وكضيت على وجهى حتى بلغت الشاطئ، ثم وقفت حائراً لا أدرى أين أذهب وليس أمامى إلا البحر . . .

متعباً أشد التعب؛ فبذلت جهدى فى البحث عن مكان مستور آوى إليه؛ فلم ألبث أن وجدت صخرة قائمة على بعد، فقصدت إليها، فوجدت مغارة، ولكنى خفت أن يكون فيها حشرات مؤذية فلم ادخلها، وجلست على بابها، ثم جعلت رأسى بين ركبتَّى ونمت . . .

ثم استيقظت على صوت ورائى، فنظرت، فإذا شبح يزحف نحوى من داخل المغرة، فقمت مرعوباً . .

وكان النهار قد أشرق، فلمحت ظلالاً تتحرك فوق الضخرة، فعلمت أن بعض النسانيس جاءوا يبحثون عنى فى هذا النحبأ؛ ورأيتنى بين شَّرين : شر يزحف إلىّ من جوف المغارة، وشر يزحف إلىّ منحدراً من فوق الصخرة؛ فاستسلمت لقضاء الله !

ولكن الشيخ الذى كان يزحف من جوف المغارة لم يتقدم، والطلال التى كانت تتحّرك فوق الصخرة لم تنتقل عن مكانها؛ فعجبت وقلت لنفسى : لعل كلَّ ذلك كان وهمًا من أوهامى !

وعدتُ إلى مكانى آمنًا بعض الأمان؛ ثم خطر لى أن أخطو خطوتين نحة الشاطئ، لعلى أرى سفينة على البعد فأشوِّر لها لتنقذنى؛ ولكنى أحسست فى تلك اللحظة حركة ورائى، فالتفت بسرعة؛ فإذا الشبح يخرج من المغارة متَّجهًا إلىَّ وبين يديه صخرة كبيرة لو هوى بها على رأسى لتهشم؛ فاستعددت للدفاع عن نفسى؛ ولكنه لم يكد يرانى أنظر إليه حتى ألقى الصخرة وأولانى ظهره هاربًا؛ ولحظت فى تلك اللحظة أن له رجلين لا رجلاً واحدة، فصرخت به : قف، لا تتحرك !

فوقف وظهره إلىّ، فعلمت أنه خائف منى، وشجعَّنى هذا على التقدم إليه، فلما دنوت منه رأيت جسده كله يرتعد من شدة الخوف، فوضعت يدى على كتفه قائلاً : أنظر إلىّ . . .

فاستدار إلىّ وهو يرتعد، فلما التقت أعيننا زال كل ما كان فى نفسى من الخوف، وزال كل ما كان فى نفسه كذلك؛ ورأيت شفتيه تتحركان ولكنى لا أسمع له صوتًا؛ فقلت له : أنت لستَ نسناسًا !

وكأنما كان فى نفسه بقية من شك، فلما سمعنى أقول : " أنا باقر ولست نسناساً؛ فمن أنت ؟ وماذا جاء بك إلى هذه الأرض ؟ "

عاد إليه الاطمئنان، وانحلَّت عقدة لسانه، ثم أخذ يروى قصته . . .

وكان إنسانًا مثلى، قذفتْه الرِيح بسفينته إلى ذلك الشاطئ ومعه بعض الملاحين من زملائه، فما كادوا يخطون على الأرض بعض خطوات حتى ظهر لهم النسانيس فقبضوا عليهم وقادوهم إلى رئيسهم كما قادونى؛ فأخذ الرئيس يسألهم عن أنفسهم، وعن بلدهم، والسبب الذى جاءوا من اجله إلى أرض النسانيس؛ ثم امر بهم فسُحبوا على وجوههم إلى غرفة مظلمة فحُبسوا فيها ثلاثة أيام؛ والنسانيس يقدمون إليهم الطعام والشراب ويكرمونهم كل الإكرام؛ فلما كان اليوم الرابع جاء نسناس فصحب واحداً منهم فذهب به ثم لم يعد، وجاء فى اليوم الثانى فصحب رجلاً ثانياً فذهب به ثمم لم يعد كذلك، وهكذا صار يفعل كل يوم، حتى لم يبق إلا رجلان؛ فقال أحدهما للآخر : " يا ترى أين يذهبون بأصحابنا " ؟ فقال الآخر " لا أدرى " ! وكان فى الغرفة نافذة عالية، فحمل أحدهما الآخر إلى النافذة فنظر منها فإذا النسانيس ملتُفون حول صاحبهما الذى أخذه النسانيس منذ ساعة وقد همُّوا بذبحه ليأكلوه؛ فبما رأى الرجل هذا المنظر عرف أن آخرته وآخرة صاحبه مثل هذه الآخرة، فاتفقا عللا الهرب قبل أن يأكلهما النسانيس؛ وساعدهما الحظ فهربا، واتخذا طريقهما إلى الشاطئ؛ ولكن النسانيس؛ أدركوهما فقبضوا على أحدهما وهرب الآخر، فلجأ إلى هذه المغارة وعاش فيها أربعة أشهر قبل أن يرانى . . .

واستمر باقر يحكى، فقال : تعجبتُ من قصة ذلك الرجل،

وقلت له : وكيف استطعت أن تعيش أربعة أشهر فى هذه المغارة ؟ ومن أين كنت تأكل وتشرب ؟ وكيف كنت تنام ؟

فقال لى : كنت أظن اننى لن أعيش فى هذه المغارة أكثر من يوم أو يومين، ثم أهتدى إلى طريقة أهرب بها من الجزيرة؛ ولكن الأيام مضت متتابعة ولم أهتد إلى طريقة للهرب، ولم لأر فى تلك المدة كلها إنساناً غيرك؛ اما الطعام والشراب فقد يسَّرهما الله لى، إذ عثرت بعد يومين على مورد رزق عظيم، يكفينى، ويكفى عشرة معى، شرَّ الجوع والظمأ؛ فهل أنت جائع فأطعمك، أو ظامئ فأسقيك ؟

وكنت لم آكل شيئاً منذ أمس، فقلت فقلت له : إننى جائع وظمآن !

فقال لى : إذا صبرتَ إلى الليل صحبتُك إلى حيث تجد كفايتك من الطعام والشراب !

فقلت : ظننتك تستطيع أن تجيئنى الآن بطعام وشراب !

فتردد برهة ثم قال : لعلى أستطيع الآن، فاصحبنى وخذ جذرك؛ فإنى لم أتعوّد الخورج إلى ذلك المكان فى نور النهار . . .

وكنتُ أظن أنه سقودنى إلى باب المغارة، ولكنى رأيته يقودنى إلى داخلها، فشككتُ فى أمره، وخشيت أن تكون حيلة يحتال بها علىّ ليقودنى إلى هلاكى؛ ولكنى اصطنعتُ الشجاعة ومشيت وراءه على حذر . . .

وظللت أمشى وراءه فى ظلام المغارة إلى داخلها الغميق؛ فما كان

أشد دهشتى إذ أحسست نسيماً اطيفاً يهبّ على وجهى فينعشنى، ثم رأيت شعاعاً من نور؛ فأيقنتُ أن للمغارة باباً آخر يؤدى إلى فضاء؛ وكان يقينى صادقاً، فلم نلبث أن وصلنا إلى آخر المغارة، فإذا هى تنتهى إلى فضاء فسيح مُشمس، قد نبتت فيه بعض الأعشاب واتنصبت بعض الأشجار وقد تساقطت تحتها ثمرات ناضجة، فالتقط صاحبى ثمرة منها ثم قشرها وقدّمها إلىّ؛ ثم التقط ثمرة أخرى وقشرها واخذ يقضمها، فأهويتُ على ثمرتى بأسنانى، فإذا لها طعم لذيذ ومذاق حلو لم أجد مثله فى ثمرة من الثمار . . .

وكان صاحبى قد أكل ثمرته كلها وألقى بذرتها، فانحنى على الأرض ليلتقط ثمرة أخرى، ولكنه لم يكد يفعل حتى سمعنا صيحة شديدة، فارتعبنا وتسمَّرت أرجلنا فى الأرض، ومال علىّ الرجل هامسًا : " قد رأونا " ! فارتعبت ووليتُ وجهى مسرعًا نحو المغارة وهى يتبعنى؛ ولكنى سمعت صيحة أخرى ورائى، وسقطة جسم على الأرض؛ فنظرتُ ورائى بلا وعى، فإذا صاحبى مُلقى على الأرض وبين كتفيه سهم مغروز؛ فأسرعت إلى باب المغارة فاحتوانى ظلامها، وابتعدتْ عنى الأصوات والأصداء، فوقفت فى مكانى كالتمثال لا أدرى أين أذهب، ولا ماذا أفعل؛ ثم عاد إلىّ رشدى، فكانما يمعت صوت صاحبى يستند بى فمضيتُ لنجدته دون أن أكر غى أمر نفسى؛ ولكنى لم أكد أقترب من الباب حتى وقفت متردداً، ثم عدتُ من حيث أتيت !

وانتهى النهار، ومضى الليل كله وأشرق صبح جديد، قبل أن أجمع نيتى على المخاطرة لإنقاذه؛ فلما وصلت إلى حيث كان، لم أجده ولم أجد أحداً غيره؛ ولكنى وجدت عظاماً مبعثرة، فعلمتُ أنهم أكلوه. . .

رحمة الله عليه، ذلك الرجل الكريم الذى صحبتُه يومًا واحداً من حياته، ولم أعرف اسمه ولا وطنه ولا أهاه؛ وبذل عمره – مع ذلك – فى سبيل إكرامى !

قال باقر : ثم عثرت على بعض مخلفَّات الرجل فى المغارة، فعرفت أن اسمه شهبندر . . .

8

مغامرة فى الجزيرة !

قال سندباد :

لم يكد " باقر " يلفظ اسم " شهبندر " حتى طار عقلى من رأسى؛ إذا اعتقدت أن الرجل الذى أكله النسانيس هو أبى . . .

وتمنيت فى تلك اللحظة لو أن أمواج البحر قذفتنْا إلى جزيرة النسانيس، لأطأ بقدمىّ الأرض التى عاش فيها أبى آخر أيام حياته . . .

وكان الشيخ، وباقر، وسائر زملائنا فى المركب، يحاولون تهجئتى فلا أهدأ؛ إذ كنت كالمجنون من شدة ما نالنى من الغم . . .

ثم حدث شئ مفاجئ، فردّنى إلى وعى، وصرفنى عن كل ما كنت أفكر فيه، وصرف أصحابى جميعاً عنى ليشتغلوا بأمر أنفسهم؛ فقد غلمت السماء فجأة وهبط مطر غزير، ثم برق البرق ورعد الرعد وأظلمت الدنيا وارتفع الموج عاليًا كالجبال : فمال المركب بنا ثم اعتدل، وأخذت الأمواج تتقاذفه صاعداً وهابطًا ومائلاً ومعتدلاً، ونحن فوقه كحبات القمح فى الغربال، لا نكاد نمسك انفسنا أو نثبت فى موضع . . .

وصاح الشيخ : يا حفيظ يارب ! هذا شئ لم أر مثله فى حياتى !

فسمعت باقراً يقول : لقد حدث لنا مثل هذا حين انكسر مركبنا بالقرب من جزيرة النسانيس !

وانقضَّت هذه الكلمة على رءوس أصححابنا جميعاً مثل انقضاض الصاعقة، فصاحوا فى نفس واحد : جزيرة النسانيس !

ومضت لحظة صمت، والمراكب يصعد بنا ثم يعبط، ويميل ثم يعتدل؛ ثم ارتفعت موجة عاتية، فانصبَّت فوق رءوسنا بقوة، فغرقنا فى لُجتَّها؛ فلما فتحتُ عينىّ بعد لحظة أجد المركب تحتى ولم أجد أصحابى، فقد انقلب المركب وقذفنا جميعاً إلى القاع، فأخذتُ أضرب الماء بيدىَّ ورجلىّ لأنجو من الغرق، ولكن كل ضربة أضربها كانت تغوص بى تحت الماء؛ فأيقنتُ أن آخرتى قد حانت؛ ولكنى لم ألبث أن شعرت بيد تجذبنى، فانجذبتُ بلا إرادة، كأننى سمكة فى كنّار صياد، وأغمضتُ عينى مستسلمًا لقضاء الله . . .

وكانت اليد التى امتدت إلىّ هى يد صديقى أبى الإسعاد؛ ولكنى لم أعرفه إلا حين بلغ بى الشاطئ سباحة؛ فلما عرفته شكرته، ثم استدرت نحو البحر لأعرف أين بقية أصحابنا؛ ولكن الأمواج المتدافعة سترتهم عن عيوننا فلم أعرف أيُّهم نجا وأيهُّم ابتلعه البحر؛ فوقفتُ صامتًا حزينًا لا أكاد اجمع شتات فكرى . . .

ولحظ أبو الإسعاد صمتى، فقال لى : عُد إلى نفسك يا سندباد وتعال نفكر فى أمرنا، فإننا لا ندرى على أى أرض قذفْتنا الأمواج،

ومن واجنبا أن نتدبَّر موقفنا ونعرف أين نحن الآن ! فقلت : ألم تسمع حديث باقر ؟ أظننا الآن فى جزيرة النسانيس !

صاح أبو الإسعاد وهو يتلفت حواليه مرعوباً : جزيرة النسانيس ؟

وسمعنا فى تلك اللحظة وقع أقدام وراءنان فالتصق بى أبو الإسعاد وهو يقول دون أن ينظر وراءه : جاءوا !

فنظرت إلى الوراء، ولكنى لم أر النسانيس الذين كان يصفهم باقر، بل رأيت باقراً نفسه، فأسرعت إليه صائحاً : باقر !

فوضع أصبعه على فمه وقال هامسًا : صَهْ، لا أريد أن يسمعونا ! ثم أشار إلينا لنتبعه، فتبعناه صامتين ونحن نتلفتُ حوالينا، وقلوبنا تدق بعنف . . .

على أنى لم أكن خائفًا فى تلك اللحظة، ولم أكن مطمئنًّا؛ بل كنت فى حالة بين الخوف والاطمئنان؛ فقد تذكرتُ وقتئذ أننى أمشى على الأرض التى مشى عليها أبى من قبل، والتى يعيش فيها القتلة الذين أكلوا

لحمه وبعثروا عظامه؛ فامتلأت قلبى بالرغبة فى الانتقام !

ولم يزل باقر يمشى ونحن نتبعه، حتى بلغ بنا جانبًا مستوياً من الشاطئ، فنظر يمينًا، ثم نظر شمالً، ثم جلس ودعانا إلى الجلوس، وقال لنا : من هذا المكان المستوى لمحُ المركب الذى أنقذنى من جزيرة المسانيس، ولم أكن أظن أن المقادير ترمينى إليها مرة أخرى !

ولم يكن فى يقيننا إلى هذه اللحظة اننا فى جزيرة النسانيس، وإنما كنا نظن ظنًّا؛ فلما قال باقر كلمته عرفنا معرفة اليقين أىّ خطر يتهددنا؛ ونظرت إلى أبى الإسعاد فرأيت وجهه أصفر كوجوه الموتى . . .

وعاد باقر يقول : خير لنا أن نلجأ إلى مكان نختبئ فيه، لنديرّ أمرنا ونحتال للخلاص، قبل أن يرانا النسانيس؛ أرى أن نذهب إلى تلك المغارة؛ فإن النسانيس لا يدخلونها . . .

ومشينا وراء باقر حتى وصلنا إلى المغارة؛ فدخل ودخلنا وراءه؛ فبما ستّرنا ظلام المغارة؛ جلس باقر ودعانا إلى الجلوس معه؛ اما أبو الإسعاد فجلس، وأما أنا فأحسست فى نفسى رغبة شديدة فى الذهاب إلى آخر المغارة، لعلى أجد هنالك بعض آثار أبى؛ ولحظ باقر ترددى، فقال لى بماذا تحّدث نفسك يا سندباد ؟

قلت : أريد أن أصل إلى الباب الآخر فأرى ماذا هنالك . . .

فصاح بى : أنت مجنون ! أجلس !

ثم جذبنى من ذارعى فأجلسنى، واستمر يقول : إنك إذا خرجت

فى نور النهار وقعت عليك عيون النسانيس، فيقتلونك كما قتلوا شهبندر !

فهاجتنى هذه الكلمة، وأفلتُّ من يده مندفعًا إلى داخل المغار؛ فجرى أبو الإسعاد ورائى وهو يقول : أنتظر، لا تذهب وحدك !

ولكنى لم أنتظر، فاستمر يجرى ورائى ليدركنى، أو ليمسكنى؛ اما باقر فظل جالسا حيث كان، ولم يرض أن يخاطر بروحه . .

ولم يلبث أبو الإسعاد أن أدركنى، فوضع يده على كتفى قائلاً : أليس من الخير أن نعود إلىمكاننا ولا نرمى بأنفسنا إلى الهلاك !

قلت مغتاظًا : عُد إن شئت، أما انا فلا بد أن أذهب !

فرفع يده عن كتفى وهو يقول : إذن فلن تذهب وحدك !

ثم مشى ومشيت إلى جانبه حامتين، لا يتحّدث إلىّ ولا أتحدث إليه؛ فقد كان كل منا مشحون الرأس بخواطر وأفكار تمنعه من الكلام؛ أما أنا فكنت مشحونا بالرغبة فى الانتقام من قاتلى أبى، ولومُتّ فى سبيل ذلك؛ وأما أبو الإسعاد فلعله كان مشحون القلب والعقل بالمخاوف، فلولا عطفه ومروءته وحرصه علىّ لما صحبنى فى هذه لمخاطرة الجرئية . . .

وفجأة صاح أبو الإسعاد :قف لا تتقدم خطوة واحدة !

ثم سقط إلى كانبى وهو يصرخ : آه !

ففقفّ شعر رأسى وتسمَّرت رجلاى فى الأرض، واحتبس صوتى فى حلقى لحظة، ثم قلت فى صوت خافت : ماذا جرى يا أبا الإسعاد ؟

قال : لاشئ، ولكنى عثرتُ فوقعت فالتْوَت قدمى !

فعاد إليّ بعض الاطمئنا، وهممت أن أخطو إليه لأنهضه، ولكنى لم أتبيَّن مكانه فى الظلام، فقلت له : أرفع صوتك لأهتدى إليك !

قال هامساً : لا أرفع صوتى ولا ترفع صوتك، فإنى أخاف أن يسمعونا؛ فقد رأيت ظلالهم تتحرك قريبًا منا قبل أن أسقط !

قلت منكراً : رأيت ظلالهم فى هذا الظلام ؟

قال : صه، ولا كلمة !

وكنتُ قد اهتديتُ إلى مكانه بصوته، فخطوتُ إليه حتى صرتُ إلى جانبه، فوضعتً يدى على كتفه وأنا أقول هامساً : أل تقف ؟

قال : لا أستطيع يا سندباد، وأظن أن فى ساقى كسراً !

قلت : اعتمد عليّ، فإنى لا أحب أن أتركك هنا وحدك !

قال : بل تتركنى وتعود إلى باقر لتخبره، ثم . . . . .

وانقطع عن الكلام فجأة، وضغطنْ أصابعة على ذراعى، ثم همس : أرى ظلالهم قد عادت تتحرك !

فخفق قلبى خفقاً، ودرتُ بعينَّى فيما حولى؛ ولكنى لم أر شيئاً؛ إذ كان الظلام حالكًا؛ فأيقنت أن صاحبى لم ير إلا أوهامه، وقلت ساخراً : ظلال فى الظلام؟ كيف يكون ذلك يا أبا الإسعاد !

وضحكت ولكن يده امتدت إلى فمى لتحبس صوتى فكستّ مكرهًا؛ ودرت بعينى فيما حولى أحاول أن أنفذبهما إلى ما وراء الظلام؛ فمال أو الإسعاد على أذنى هامسًا : ملْ غلى اليمين درجة ثم انظر؛

ألست ترى شعاعًا من النور؟ فإنى ظلالاً تتحرك فى ذلك الشعاع . . .

فملتُ إلى اليمين ونظرت كما أشار، فإذا دائرة مضيئة على حائط المغرة، تشبه الدينار؛ فقلت هامسًا : من أين هذا الضوء ؟

وقبل أن اسمع جواب أبى الإسعاد رأيت ظلالاً تتعاقب على تلك الدائرة الميئة : تظهر ثم تختفى؛ فأيقنت أن أشباحاً تتحرك وراء الثقب المستدير الذى ينفذ منه ذلك الضوء، لا بفصلها عنا إلى قصبات أو أمتار؛ فلم أر منالحكمة أن أجازف بحياتى فى تلك اللحظة . . .

وظللنا جالسين ساعة، ونحن نرقب الدائرة المضيئة والظلال التى تتحرك فيها؛ ولكن الضوء لم يلبث أن اختفى، كأنما انسَّد الثقب الذى كان ينفذ منه، فقال أبو الإسعاد : عجباً ! كيف انتهى النهار هكذا سريعاً ولم يمض علينا منذ دخلنا المغارة إلا ساعة وبعض ساعة ؟

: لعل النهار قصير فى ذه المنطقة، فقد سمعت أن اشمس فى بعض المناطق لا تُشرق على الناس إلا ساعة واحدةثم تغيب . . .

فضحك أبو الإسعاد ساخراً وقال لى : من أين لك هذه المعارف العظيمة يا سندباد ؟

فغاظنى ضحكه وقلت : نعم، وفى بعض المناطق تشرق الشمس على الناس سته أشهر، وتغيب ستة أشهر أخرى . . .

فكفّ عن الضحك وقال : ولكن ذلك لا يكون يا بنى إلا فى المناطق القطبية، ونحن بالقرب من خط الاستواء، حيث يتساوى الليل والنهار !

قلتُ ضاحكاً :لعل النسانيس قد نقلوا قطعة من القطب إلى خط الاستواء !

ثم هببت واقفاً وقلت : إننى ذاهب لأرى !

فشدّنى من ذارعى وقال : لا تكن احمق يا سندباد؛ فإن الشر ينتظرك هنالك، والويل لك إذا ظهرتَ لهم؛ فإنى لأظن أن النهار لم يزل مضيئًا وراء المغارة وإن لم تره أعيننا !

فشددت ذراعى لأتخلص منه وقلت : دعنى أذهب إليهم؛ فأما انتقمتُ منهم لأبى وإما ألحقونى به؛ فتستريح نفسى على الحالين !

قال : إذن فلابد أن أصحبك. دعنى أتوكأ عليك . . .

ثم اعتمد على كتفى ومشى إلى جانبى يحجل برجل واحدة، فلا تخش أن يروك، فسيطنزنك واحداً منهم !

ثم قهقهت قهقة عاليه، تردد صداها بين جدارن المغارة، فلم ألبث أن سمعتُ همهمة وأصواتًا؛ فأيقنت أن النسانيس قد سمعونى وتلك أصواتهم، فذابت شجاعتى وامتلأ قلبى رعبًا، فلم أستطع أن أخطو خطوة واحدة إلى الأمام . .

فقال لى أبو الإسعاد ساخراً : لماذا وقفت؟ اذهب لتنتقم لأبيك فأتارتنى سخريته واندفعت وحدى خارجاً !

وبلغتُ آخر المغارة فى خطوتين؛ فما كان أشّد دهشتّى إذ رأيت

نور النهار وراءها ضاحيًا، وكنت اظن الشمس قد غربت؛ فترددت لحظة، ثم خطوت خطوة أخرى فخرجت من المغارة إلى الفضاء الفسيح . . .

ورأيت المكان خاليًا وليس به أحد؛ فعاد إلى بعض الاطمئنا، ولكنى ظللتُ وافقاً فى مكانى، لا أجرؤ على خطوة إلى الأمام ولا خطوةة إلى الوراء . . .

فى هذا المكان المشئوم من هذه الجزيرة الملعونة، قتل النسانيس أبى شهبندر واكلوا لحمه ورموا عظامه !

9

معركة النسانيس !

قال سندباد :

تلفَّتُّ حوالى أبحث عن آثار أبى، ولكنى لم أر شيئًا، فقدكان الفضاء حولى خالياً إلى من تلك الاشجار السامقة وقد تساقطت تحتها الثمرات، فانحنيت على ثمرة منها لألتقطها، ولكنى أحسست حركة ورائى.

فاعتدلت ونظرت، فإذا نسناس يتربص بى على بعد وقد صوب إلى سهمًا؛ فوثبتُ مبتعداً عن مَرمْى السهم فنجوت؛ ولكنى لم أقنع بالنجاة من ذلك السهم القاتلن فهجمت على النسناس وقد أمتلأت نفسى حقداً وضغينة . .

وارتميت عليه فألقيته أرضاً، ثم ركبته وجعلت يدى فى رقبته لأختقه، ولكنه مات منا لمفاجأة قبل أن تضغط يدى على رقبته؛ فنزلتُ عنه ووقفت انظر وأتسمَّع، فإذا صوتٌ آخر ورائى، فالتفتّ نحوه، فرايت أبا الإسعاد قادما يتوكأ على نفسه . .

وفجأة رأيته ينبطح على الأرض كأنما دفعتْه يد من ورائه، ومَرَقَ سهم بجانب أذنى فلم يصبه ولم يصبنى . . .

وقبل أن أتبيَّن موقفى أو أدرك حقيقة ما حدث، انطلق سهم آخر فطار بعمامتى؛ فانبطحت على وجهى بجانب أبى الإسعاد، وقد أيقنتُ أن فرقة منا لنسانيس يصوبون سهامهم إلين . . .

ثم رأيتهم يبرزون منوارء الشجر متجهين إلينا، فاندفعت نحوهم؛ ولم يكونوا يتوقعون ذلك؛ فاضطربوا ووقع الخلل فى صفوفهم وولىّ بعضهم هارباً، فشجعنى ذلك هجمت عليهم؛ فأطلقوا سهامهم منقرب فلم تصبنى؛ فولوا ظهورقم وامطلقوا هاربين يحجلون، ووقع بعض ما كانوا يحملون منالقسى والسهام؛ فأخذت منها قوساً، وصوبت سهماً إلى أحدهم فأصبته، ثم صوّبتُ سهماً آخر؛ ولكنهم اختفوا عن عينّى قبل أن يصل ذلك السهم، وخلا المكان . . ز

فهللت فرحًا، ثم نظرت ورائى وأنا أقول : أرأيت يا أبا الإسعاد ؟

ولكن أبا ألإسعاد لم يكن ورائى،فقد بقى فى مكانه منبطحاً وهو ينظر إلى من بعيد حتى اختفيت عن عينيه وراء النسانيس؛ فرجعت إليه؛ ولكن لم أكد أقترب من مكانه حتى رأيت فرقة أخرى من النسانيس قد أحاطوا به يريدون أن يقيدوه ليذهبوا به؛ فرعقت فيهم من بعيد :قفوا لا تتحركوا . . .

وفاجاهم زعيقى قبل أن ينتبهوا إبل وجودى، فالتفتوا نحوى، ثم شدُّوا أوتار قسيِّهم وسدّدوا السهام؛ ولكن سهمى كان أسرع إليهم، فسقط منهم نسناس؛ فتشجع أبو الإسعاد وراتمى على المصاب فانتزع قوسه وسهمه

ليشارك فى المعركة !

وخاف سائر النسانيس ففروا والسهام فنظهورهم، فسقط على الأرض خمسة منهم : أصبت منهم أربعة وأصاب أبو الإسعاد الخامس . . .

هذه النتيجة الباهرة لم تكن فى حسابى ولا فى حساب أبىالإسعاد ولا فنحساب النسانيس؛ تقد تعلمتُ منها حقيقة عظيمة، هى ان النصر دائماً حليف الشجاعة، ولا حليف القوة والعدد والحجمّ . . .

ونظر غلى أبو الإسعاد قائلاً : احذر يا سندباد أن تغتر؛ فنحن وحيدان فى هذا المكان، وقد انتصرنا على النسانيس فى أول جولة، ولكنهم لن يسكنوا او يكفُّوا عن طلب الثأر، ولابد أن يعودوا . . .

ولم يكد أبو الإسعاد ينتهى من كلمته حتى سمعت حركة قريبة، فشددت فشددتُ وتر القوس واستعددت للَّرمْى؛ فلم أكد ألمح أول شبح مقبل حتى أطلقتُ سهمى، وإذا صرخ يرتفع : آه أدركونى ! لقد أصابنى النسانيس !

وعرفت الصوت، فضطربت أضطرابًا شديداً ثم اتجهت نحوه؛ وكان " باقر " راقداً على الارض والدم ينزف من جرح عميق فى صدره . . .

وا أسفاه ! لقد أصبت صديقى بسهمى وكان تَسَرُّعى هو السبب !

وانحنيت عليخ قائلاً : أراك بخير يا باقر، فأين أصابك السهم ؟

فنظر إلى فى انكسار وضعف ثم قال انج نفسك يا سندباد قبل أن يصيبوك كما أصابونى !

فآلمنى هذا القول إيلاماً شديداً؛ ولكنى كظمت ألمى وأخذت أمزق الثياب عن موضع الجرح لأعرف أين أصابه السهم؛ فإذا هو قد نفذ من بين أضلاعه إلى تجويف صدره؛ فقلقت وأشتد خوفى على حياته !

وكا السهم لم يزل مرشوقا فى صدره، فنزعته بلطف، ثم وضعتُ منديلى فى مكان الإصابة، وأسندته حتى وصلت به إلى المغرة فأرقدته على أرضها ثم قلت له أيمكن أن يكون هنا ماء يا باقر ؟

قال : نعم؛ ولكنى أخاف أن تذهب الآن إلى العين فيروك !

قلت : أريد الماء الآن لأغسل به الجرح.

فأجاب بعد تردد : أذهب واحترس؛ أن العين وراء ذلك الشجر الملتف؛ ولكن المكان لا يخلو من أحدهم فى النهار ! . . .

فقمت لاتيه بالماء؛ وبحثت عن قوسى وسهمى فلم أجدهما ولم أذكر اين تركتهما؛ فوقفتُ برهة أحاول أن أتذكر؛ فقال لى : أنت خائف يا سندباد، ومن حقك أن تخاف . . . بالله لا تذهب الآن !

فمست كلماته عاطفتى وامتلأت عيناى بالدموع !

هذا الزميل الكريم، أنا رميتُه بسهمى وهو لا يدرى، ويخشى على أن تصبينى سهام العدو . . . يا له موقفًا شديد الإيلام للنفس !

وخشيت أن يفضحنى اضطراب نفسى؛ فنطلقت مسرعاً ولكنى لم أكد لأخرج منالمغارة حتى بَغَتتْنى فرقة من النسانيس، فانقضُّوا علىّ انقضاض الصاعقة، ثم قيَّدونى وحملونى ومضوا بى !

10

النجدة !

قال سندباد :

وقعتُ فى أيدى النسانيس، بعد أن قتلتُ منهم طائفةنوانتصرت عليهم فى أكثر من معركة؛ فهل أفلت من هذا الأسر وأنجو بروحى أم تكون آخرتى على أيديهم كما كانت آخرةة أبى شهبندر ؟

ورأتينى محمولاً بينهم مقَّد الحركة لا أستطيع تدبيراً ولا حيلة، فيئست من حياتى وأيقنت أنها الآخرة ! وفجأة رأيت عقدهم ينتثر وجمعهم يتفرق؛ ورايتنى أسقط على الأرض سقطة ترضُّ العظم . . .

ولم أعرف فى أول الأمر

سبب ما حدث، ولكنى لم أكد أقف على قدمىّ حتى خمنَّت تخمينًا، فقد رأيت نسناسًا منهم مجندلا على الارض وفى ظهره سهم مرشوق، فعرفت أن أحداً رماه من ورائه بذلك السهم فإصابه، فخافوا وتفرقوا؛ ولكن من الذى رماه فانقذنى من الموت فى اللحظة الأخيرة ؟ اهو صديقى أبو الإعاد ؟ ولكنه كسير مرضوض العظم لا يستطيع أن يقف على قدمين؛ أم هو رفيقى باقر ؟ ولكنه جريح ينزف الدم من صدره فى المغارة؛ فمن يكون ذلك الرامى ؟

وتلَّفتُّ حوالىّ قلقًا حيران، وقد خطر لى أن رامى السهم نسناسٌ منالنسانيس يسنه وبين سائرهم عداوة، كما تكون العدوات بين الناس بعضهم وبعض؛ وربما رأهم ذلك النسناس يحملوننى ويذهبون بى فطمع فى أن أكون من نصيبه دونهم، فرماهم بسهمه ليأخذنى؛ فلا نجاة فى من الموت على الحالين !

كذلك قلتُ لنفسى وأنا أنظر حوالىّ فى خوف وقلق وحيرة؛ ولكنى لم ألبث أن عدت إلى الاطمئنان حين رأيت على البعد شبح إنسانن يقترب ولم أتبين صورته من أول نظرة، ولكنى لم ألبث أن عرفته؛ إنه شيخ القافلة . . .

يا للحظ السعيد !

إذن فقد نجا الشيخ كما نجونا، وقذفتْه الأمواج كما قذفتنا على ساحل هذه الجزيرة، فجاء فى اللحظة الأخيرة لينقذنى !

لك الحمد يا ربى !

وأسرعت إلى الشيخ وقلبى يخفق بين ضلوعى فرحاً، فارتميت بين ذراعيه كما يرتمى الطفل بين ذراعى أبيه، فاعتنقنى وقبَّل جبينى وخدىّ، ثم سالنى : هل نجا معك أحد من اصحابنا يا سندباد !

قلت : نعم، أبو الإسعاد، باقر؛ ألم ترهما ؟

ثم قُدتُه إلى أبى الإسعاد، فساعدناه على القيام ومضينا به إلى المغرة، حيث كان باقر راقداً وقد غُشى عليه من كثرة ما نزف من دمه؛ فأخرج الشيخ من صدره زجاجة صغيرة فأنشقه منها، فأفاق من غشيته، ثم دار بعينيه فيما حوله وهو يسأل : لأين انا ؟

قال الشيخ : أنت معنا يا باقر؛ فماذا حدث ؟

قلت وقد عاد إلى الشعور بالقلق : دعه بالله يا سيدى، لا تسأله فإن فى صدره جرحاً عميقاً، وليس من الخير أن ترهقه بكثرة الحديث !

وتذكرتُ فى تلك اللحظة ما كنت أريده قبل أن يفاجئنى النسانيس، فهببت واقفًا؛ ولكن الشيخ أمسكنى قائلاً : أين تذهب يا سندباد ؟

قلت : أريد ماء لأغسل له جرحه . . .

قال الشيخ : لسنا فى حاجة إلى ماء معى بعض السوائل المطهِّرة.

ثم مد يده إلى صدره فأخرج زجاجة، وزجاجة أخرى، ثم زجاجة ثالثة؛ ضحكت قائلاً : أرى فى جيبك يا سيدنا صيدلية كاملة . . .

قال : نعم ولابد لكل رحَّالة من صيدلية كاملة . . .

ثم شم بعض الزجاجات وقطر منها سائلاً على جرح باقر، ثم فك

عمامته وأخذ يمسح بطرفها ما حول الجرح من الدم المنجمد، وهو يتحسس بأصبعه فى الظلام وضع الإصابة؛ فقال لأو الإسعاد : لو كان معنا الساعة مصبح كهربىّ !

فضربت يدى فى جيبى أتحسس مصباحى، ثم أخرجنه فنّورتُ به ،فصاح الشيخ فرحاً : هذا حسن !

ثم أخذ يفضح عن الجرح ويجعل عليه بعض العقاقير، ثم حشاه بجزء من لوثة العمامة، ثم ربطه، ثم أرقد الجريح على أرض المغارة وقال له : أرك بخير يا باقر، ولكن عليك أن تلزم مكانك فلا تتحرك حتى يلتئم الجرح !

ثم نظر إلى قائلاً : أطفئ مصباحك يا سندباد، فليس منالمصلحة أن يبقى منيراً؛ ثم أخبرنى بكل ما حدث بينكم وبين النسانيس !

قال أبو الإسعاد : لقد قتل منهم سندباد عدداً غير قليل !

قال الشيخ : لقد خمنَّتُ هذا حين رأيت بعض قتلاهم، ولكن كيف أصابوك وأصابوا باقراً معك يا أبا الإسعاد ؟

قال أبو الإسعاد : بل أصابوأ باقراً وحده أما أنا فقد وقعتُ فانكسرت رجلى ولم يصبنى أحد مهنم . . .

وشعرتُ بوخزالضمير فى تلك اللحظة، وهممتُ بأن أعترف للشيخ؛ ولكنى خشيت أن يسمع باقر فيتألم، فتزاد حالته سوءاً؛ فسكتٌ.

وسكت الشيخ وأبو الإسعاد مثلى؛ فقد أحسا فى تلك اللحظة خطراً

يقترب؛ إذا كانت فرقة من النسانيس على باب المغارة تتهيأ لا قتحامها . . .

لم نلب أن سمعنا وقع أقداد فعرفنا أن بعض النسانيس قد دخلوا ..

ورأينا الشر يقترب منا نحن محصرون فى تلك المغارة المظلمة لا نملك دفاعاً عن أنفسنا . . .

وظلت الأصوات تقترب حتى لم يبق بيننا وبينهم إلا القليل، ونحن فى حيرة من أمرن، لا ندرى كيف ندفع عن أنفسنا، ومعنا دريحان لا يستطيعان المقاومة ولا الفرار، ولكن الأصوات لم تلبث أن هدأت، كأنما بدا للنسانيس أن تعودوا من حيث أتوا؛ وقى هذا الظن فى نفسى حين طال الصمت، فرايتنى أضع يدى فى جيبى وأخرج مصباحى فأشعله وأرسل نوره؛ فلم أكد أنظر حتى أمتلأت نفسى ذعراً؛ إذ رأيت بضعةة نسانيس قد أسندوا ظهروهم إلى حائط المغارة صامتين، ينترون أن نتحرك حركة يعرفونن بها مكاننا؛ فلم يد نور المصباح بقع على وجههم حتى صرخوا، فارتعشت يدى وسقط منها المصباح على الأرض . . .

وسمعت فى تلك اللحظة حركة عنيفة، كأن جيشاً جمّ العدد يهجم علينا، فانهارت عزيمتى وأيقنت بالموت؛ ولكنى لم ألبث أن رأيت المصباح الملقى على الأرض يرتفع ويرسل شعاعه مرة أخرى إلى بعيد فما كان أشد دهشتى إذ رأيت النسانيس يثبون نحوو الباب هاربين . . .

وكان الشيخ هو الذى التقط المصباح حين سقط من يدى وأرسل شعاعه إليهم، فلما رآهم يتواثبون هاربين نظر إلىّ ضاحكاً وهو يقول :

اتبعنى، لندركهم قبل أن يفرُّوا !

واندفع نحو باب المغارة واندفعتُ وراءه، ولكنى وقعت متعثراً فى جسدنسناس منهم، وكان قد وقع على الأرض فداسوه وانطلقوا هاربين، لا يفكر أحد منهم إلا فة نفسه؛ وأحس الشيخ بوقعتى فهتف بى : انهض، انظر فى ضوء المصباح لئلا تقع وقعة أخرى !

وكان وراء المغارة فرقة أخرى من النسانيس ينتظرون أصحابهم فلو يكادوا يرونعم قادمين عليهم مرعوبين حنى فروا مرعوبين مثلهم، ونحن منورائهم جميعاً . . .

ورأيت سهمى وقوسى على الأرض عند باب المغارة، فالتطتهما وصوبتّ إليهم سهماً، ووتَّر الشيخ قوسه مثلى وصوب، فسقط اثنان منهم قتلين، ثم سقط اثنان آخران؛ فأخذوا يجدوُّن فى الهرب ونحن نجدُّ وراءهم فى المطاردة . . .

11

أمير النسانيس !

قال سندباد :

استمر النسانيس يجرون ونحن فى أثرهم لا نكف عن الرمَّى، وصعدوا تلاً متجمعِّون فى حلقة، وفى وسط الحلقة مجلس، وفى صدر المجلس نسناس منهم له وقار وهيبة واحترام؛ فلما وقع عليه نظر الشيخ قال لى : إن صح ظنى يا سندباد فهذا اميرهم، فصوب إليه سهمك !

ثم صوب سهمه وصوبت؛ وكان الهاربون ما يزالون يجرون، لم يصلوا إلى تلك الحلقة لعد ولم يُخبروا اجداً بما رأوا من الويل . . .

وأطلقنا ولكنهما السهمين اخطآ الهدف، فلم يصيبا الأمير وأصابا اثنين من بطانته؛ فهاج الجميع وماجوا، واتجهوا بأنظارهم إلينا ولكن أنظارهم وقعت على الهاربين قبل أن تقع علينا، ثم راونا، فوثبوا إلينا كانما يطيرون طيرانًا، فقلت لنفسى؛ جاء الشر الاكبر !

واستدرت على عقبى لأهرب؛ ولكن الشيخ صاح بى غاضبا اثبت واضرب؛ لابد أن نُبيدهم !

ثم صوب سهمه، وأطعته فصوبَّت سهمى، وأصابت رميته ورميتى معاً، ولكن رميته كانت أفدح إصاية؛ فقد أصابت صدر الامير . . .

وكنت أظن انهم سيهجمون علينا ثائرين إذا رأوا أميرهم قتيلا، ولكنهم لم يهجموا . . .

وكان الشيخ يظن أنهم سيفرون مخذولين إذا رأوه قتيلا، ولكنهم لم يفرُّوا كذلك . . .

لم يثوروا فيهجموا، ولم يجبنوا فبفروُّا، بل وقفوا فى أمكنهم هادئين برهن، ثم استداروا حول القتيل حلقة، ثم ركعوا حتى كادت رءوسهم تمس الأرض ثم انتصبوا كما يقوم عود من القصب مالت به الريح، ثم ارتفع بينهم صوت رقيق كأنه غناء، ثم امتزجت ألحانهم فى نشيد

جماعى موثر، ثم رأينا اثنين منهم يتجهان نحونا وقد انحنى رأساهما إلى الأرض . . .

حدث كل هذا ونحن ننظر إليهم صامتين، ولا نكاد نفهم لتلك الحركات معنى . . .

فلما رأيت ذينك النسناسين يتجهان نحونا، عاودنى الخوف بعد اطمئنان، فهممت أن أجرى؛ ولكن الشيخ أمسك بى قائلاً ولا تخف !

فانتظرت والخوف يملأ نفسى؛ فلولا حصى على طاعة الشيخ لفررتُ وتركته . . .

ثم لم يلبث النسناسان أن وصلا إلينا، فانحنيا بين أيدينا باحترام، ثم استقام عودهما وظلا صامتين برهة، ثم نطقا، لم أفهم من منطقهما حرفاً، ولكن الشيخ فهم قولهما على ما أظن، فقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة؛ ثم قال لى : انا أمير النسانيس منذ الساعة يا سندباد !

فلم أفهم مغرى كلامه، ولكنى لم أجد فرصة لأستوضحه، فقد أشار إلى النسناسين فسبقانا على الطريق، ومشينا وراءهما إلى حيث كان الأمير القتيل ملقى على الأرض .

وقال لى الشيخ ونحن نسير وراء النسناسين : لقد فهمتُ هذا منذ رأيتهما قادمين نحنو !

قلت مستوضحاً : ماذا فهمت ؟

قال : إن من عادات بعض الشعوب الهمجية إذا قُتل أميرها أن تدين لقاتله بالولاء وتجعله أميرها !

واسترسل يقول ضاحكاً : فأنا أمير النسانيس منذ الساعة، فاحسب حسابى إن كنت تريد النجاة بنفسك يا سندباد !

قلت : فأنا أحسب حسابك قبل أن تكون أميراً، أما الآن . . .

قال : أما الآن فانك لابد أن تكون أدق حساباً وأكثر طاعة، وغلإ خلعتُ نفسى ورعمتُ لهم انك قاتل أميرهم، لتكون أمير النسانيس !

وكنا قد وصلنا إلى الحلقة، فانفرج النسانيس صفين وفسحوا لنا بينهما طريقاً وقد حنو رءوسهم أحتراماً، فمشينا بين الصفين حتى وصلنا إلى حيث كانت جُثَّة الأمير القتيل، فانحنى عليه اثنان منهم فخلعا عنه جبته وتاجه، ثم جعلوهما على جسم الشيخ، ووضعوا فى يده عصًا ذات شعبتين، هى صوَلجان الأمير؛ ثم استداروا حولنا راكعين وهم يرددون نشيداً حماسياً لم أفهم منه كلمة ولكنى أحسست معناه . . .

وكانت تلك الحركات وذاك النشيد هى كل مراسم التولية؛ فلما فرغوا منها، انفرجت الدائرة صفين كما كانت وانفسح بينهما طريق فمشينا فيه وقد خمَّنت أنهم ذاهبوان بنا إلى قصر الإمارة !

وكان تخمينى صحيحاً، فلم نلبث أن وصلنا إلى بناء كالذى وصفه باقر، فهمست فى أذن الشيخ: من اى أبواب القصر تدخل يا أمير ؟

قال : ماذا تعنى ؟

قلت : إن باب القصر – كما علمت – لا يمكن أن يتع لك، فاحسب حسابك قبل أن تنحشر فى الباب مثل حَشْرة باقر !

فهز رأسه قائلاً : صدقت، وإنك منذ الآن لجدير بأن تكوت وزير الأمير ومستشاره؛ فبماذا تشير يا وزير النسانيس ؟

قلت ضاحكاً : إن وزيرك لا يشير عليك بالرأى قبل أن تجلس على عرشك !

قال : فليكن عرشى هنا، فى هذا الفضاء الفسيح !

ثم وقف ورفع العصا ذات الشعبتين فى يده، فوقف النسانيس وخروًّا بين يديه ساجدين . . .

ولم يكن الشيخ يعرف ماذا يفعل بعد ذلك ولا ماذا يقول؛ فلما رآهم ساجدين بين يديه قال لى : أراهم لم يسجدوا إلى طاعة لإشارتى إليهم بالعصا، وما أظنهم يجرءون على أ، يرفعوا رءوسهم قبل أن آذن لهم؛ فلنتركهم ساجدين ونمضى إلى حيث نشاء، فلن يتبعونا !

قلت : وهل تظن انهم يظلون ساجدين بعد أن نذهب عنهم ؟

أما أنا فلا أظنهم يبقون إلا لحظات، ثم يرفعون رءوسهم وإن لم يُؤذن لهم !

قال : فماذا ترى أن نفعل يا وزير ؟

قلت : إذا كانت إشارة العصا هى الأمر كما ظننت، فأشر إليهم أن ينصرفوا عنا، لنمضى إلى حيث نشاء !

قال : ثم ماذا ؟

قلت : ثم نذهب إلى باقر وأبى الإسعاد، منتدبر امرنا جميعاً ونُحكم حيلتنا للخلاص . . .

قال : فلنجرب !

ثم رفع الشيخ عصاه وهتف بالنسانيس قفوا !

فرفعوا رءوسهم، ثم استداروا حوالينا حلقة؛ فمضى إلى جانب من الحلقة ومضيتُ إلى جانبه؛ ثم رفع العصا مرة أخرى فانفرجوا صفين ورءوسهم ناكسة إلى الارض، فمشينا بينهم حتى خرجنا إلى الخلاء الفسيح، وأشار الشيخ لهم أن يتبعونا . . .

وكان هذا مخالفًا لما اتفقت عليه مع الشيخ؛ ولكنى لم ألبث أن عرفتُ أين يقصد، إذ رأيته يُصعد فى الطريق إلى الشاطئ . . .

وارتقى الشيخ صخرة عالية تشرف على الماء، وأشار إليهم حتى تجمعَّوا فوقها، ثم رفع العصا فخرُّوا سُجَّداً؛ فمال على أذنى هامساً : الآن نستطيع أن نفعل شيئًا لتخليص الدنيا من هذا الجنس الشرير !

ثم انحدر عن الصخرة مسرعاً وانحدرت وراءه حتى هبطنا إلى بطن الوادى . . .

12

آخرة النسانيس !

قال سندباد :

ظل النسانيس ساجدين فوق الصخرة ونحن ننحدر إلى الوادى؛ فلما صرنا عند السَّفح نظرنا وراءنا، فرأيناهم ما يزالون ساجدين، فقال الشيخ : الآن قد صار شعب النسانيس كله فوق الصخرة !

قلت : ماذا تعنى ؟

قال : لا تُكثر السؤال يا سندباد، واذهب فاجمع حطبًا وخشبًا وعشبًا يابسًا لنجعله حول الصخرة، وأرجوو أن يكون معك كبريت !

ففهمتُ قصده وقلت مستنكراً : أتريد أن نشعل النار حواليهم ؟

فأجابنى بغلظة : قد أمرتك؛ فأطع أمرى بلا مناقشة !

وقد بدأ لى الشيخ فى تلك اللحظة غليظاً قاسيًا وحشًى المنظر كأنه نسنساس من النسانيس لا إنسان من الناس، وكانت العصا فى يده تمثل لمنظراً آخر ويخرون ساجدين، فكأنما خُيِّل إليه أنه يرانى نسناساً من رعيتَّه فلست املك مثلهم إلا الطاعة، ولكنى أبيت أن أطيع وقلت

له : اذهب انت فاجمع الحطب إن شئت لتحرقهم، فإنى لا اطيق أن أشارك فى هذه الجريمة !

قال : سأذهب وتبقى أنت؛ فإنى أخشى لة ذهبنا جميعاً أن يرفعوا رءوسهم فلا يرونا، فربما بدا لهم أن يتبعونا أو يتمردوا علينا، فيكون الشر الذى نخافه !

ثم مضى ليبحث عن الوقود وتركنى؛ فنظرت إلى النسانيس وهم ساجدون فوق الصخرة، فخشيت أن يرفعوا رءوسهم كما توقَّع الشيخ فلا يروا احداً غيرى، فربما بدا لهم أن يصيبونى بالأذى؛ فامتلأ قلبى رعباً، وهممت أن أتبعه إلى حيث ذهب، ولكنى خشيت أن يشجعِّهم هذا على الشر أكثر مما يشجعهن وجودى وحدى؛ فبقيت حيث كنت، وعيناة معلقتان بهم،وقلبى يخفق حفقًا شديداً.

ومضت لحظات، ثم حدث ما كنت أحذره، إذ رفهوا رءوسهم واحداً بعد واحد، ثم تلفتَّوا حواليهم يبحثون عن الأمير، فلم يروه ورأنن فترددوا برهة، ثم أخذوا يتواثبون نحوى . . .

يا للشر الفادح ! من أين لى الخلاص من هذا المأزق الخطير ؟

كذلك سألت نفسى وعيناى زائغتان زأنفاسى متتابعة، وهم يقتربون منة وثبة بعد وثبة، فهممت أن أجرى؛ ولكن الشيخ أقبل فى تلك اللحظة وهو يجمل على كتفيه حملاً ضخماً من الحظب والخشب ولحاء الشجر اليابس؛ فلما وصل إلى حيث كنت، ألفى حمله عن كتفيه، ثم جعله

كالقوس حول الصخرة، وقال لى : أشعل كبريتاً يا سندباد !

ولم يكن معى كبريت، ولم يخطربالى من قبل أننى أحتاج إلى كبريت فأستعد لمثل هذا الموقف؛ ولكن الشيخ لم ييأس، فأمسك حجرين يدقهما ليقدح شراراً، فلم يلبث العشب الجاف أن اشتعل ثم امتدت ناره إلى ما حواليه، ثم اشتعل الحطب والخشب ولحاء الشجر فإذا الصخرة التى تجمَّع النسانيس فوقها كأنها جزيرة فى بحر من النار !

وهبَّت الريح فى تلك اللحظة، فظادت النار اشتعالاً وزادت رقعتها اتساعاً، إذ كانت الأرض فيما حوالينا كثيرة العشب اليابس؛ ورأيت النسانيس فى تلك اللحظة وهم يتجمعون ثم يتفرقون ثم يتواثبون إلى هنا وهنالك، يريدونن أن يخرجوا من نطاق النار الذى يحيط بهم، ولكنهم

لا يجدون مخرجاً؛ فأيقنت أن شعب النسانيس لا بد ان يحترق وينجو الناس من شره !

وتذكرت فى تلك اللحظة أبى شهبندر وما فعله النسانيس به، فامتلأ قلبى حقداً عليهم وشماتة بهم، وتجردت نفسى من كل عوامل الرحمة والعطف . . .

ولكن النار التى أشعلناها لنحرق بها النسانيس لم نلبث أن أحاطت بنا، فإذا نحن فى وسطها؛ ذلك لأن الأعشاب اليابسة تحت أقدامنا وفيما حوالينا لم تلبث أن امتدت إليها النار فاشتعلت، ثم استع نطاقها فيما حوالينا حتى انحصرنا مثل النسانيس فى بحر من النار . . .

وبدا لى فى تلك اللحظة أن آخرتنا وآخرتهم واحدة، هى ان نموت جميعًا محترقين بالنار.

ولكن الله لطف بنا، فلم تلبث نار الأعشاب تحت أقدامنا أن انطفأت؛ اما نا الخشب والحطب التى تطوق الصخرة فظلت مشتعلة، والنسانس فوق الصخرة يتواثبون إلى كل ناحية يحاولون النجاة بأنفسهم من النار المشتعلة فلا يجدون مهرباً . . .

وأيقن النسانيس أنهم من الهالكين، وأن النار لابد أن تأكلهم فلا تترك منهم لحمًا ولا شحمًا ولا عظمًا فتشجَّع بعضهم ووثبوا إلى البحر لينجوا من النار، فابتلتعهم الأمواج وغرقوا؛ وحاول بعضهم أن يخترقوا نطاق النار المشتعلة لنحدروا من فوق الصخرة إلينا، فلم يكادوا

يدخلون فى اللهب حتى ذابوا ثم اختفوا عن عيوننا؛ وظل الباقون يتواثبون فوق الصخرة يائسين حتى ارتفع الدخان فسترهم عن عوننا . . .

ثم انطفأت النار، وانقشع الدخان، وصفت السماء؛ وأنا والشيخ واقفان عن السفح ننتظر الخاتمة؛ فلما رأينا النار وانقشاع الدخان وصفاء السماء، أخذنا نتقدم إلى الأمام خطوة خطوة، على خوف وحذر لنعرف كم مات من النسانيس وكم بقى . . .

وصعدنا فوق الصخرة، فلم نر إللا ترابًا وعظامًا مفحَّمة؛ والحقُّ أننى شعرت فى تلك الحظة بانقباض وضيق؛ إذ بدا لى مقدار القسوة التى عاملنا بها ذلم الشعب البائس، ولكنى حمدت الله فى الوقت ذاته، لنه خلصَّ العالم من شر النسانيس !

وكانت الأرض لم تزل دافئة تحت أرجلنا، كاننا نمشى على ظهر فُرن مشتعل؛ وكانت رائحة اللحم المحترق تملأ أنوفنا؛ فكأنما تذكرَّ الشيخ فى تلك اللحظة ذكرى، فقال لى : أليس يشوقك يا سندباد فى هذه اللحظة أن تأكل خبزاً طريًّا وكبابًا مشويًّا ؟

فتراجعتُ إلى الوراء قائلا : اعوذ بالله ! كيف يخطر على بالك الآن ذكر الكباب المشوىّ والعيش الطرى ؟

فغضب الشيخ قال وعاتبًا : كيف توجه إلى مثل هذا القول يا سندباد، وأنا شيخ مثل أبيك ؟ وإنما حدثتك ذلك الحديث لأسليك وأدخل فى نفسك بعض المسرَّة فى هذا الموقف المؤلم !

قلت كالمعتذر : ولكنْ ما ذكرُ الكباب المشوى والعيش الطرىّ فى هذه المناسبة ؟

قال وعلى فمه ابتسامة : فى بلادنا، حين تجتمع نساء الأسرة للخبيز فكل أسبوع مرة، يشوين فى أعقاب كل خبَزْة لحمًا؛ فنأكل فى ذلك اليوم الكباب المشوى بالخبز الطرى، وننام على ظهر الفرن الدافئ، فتكون أكلة ونومة نتمناها كل أسبوع مرة !

قلت لأصرفه عن بعض ما كان فيه من الغضب : وأنا والله اتمناها ولكن أين منا الآن خبز طرىّ ولحم مشوىّ ؟

وسمعت ورائى حسًّا فى تلك اللحظة، فسكتّ والتفتّ ورائى؛ فإذا نسناس حىٌّ يرفع رأسه بين الأشلاء المحترقة، فتراجعتُ مذعوراً وانا أقول للشيخ نسناس !

ونظر الشيخ إلى حيث نظرت، فرآه، فأسرع إليه، وتبعتُه غير خائف ولا حذر؛ وأدهشنى أنه كان سليماً معافى صحيح البدن كأن النار لم تمسه، ولكن دهشتى زالت حين رأيت ثيابه مبتلَّة، فعلمت أنه كان فى الماء فلم يصعد إلى الصخرة إلا بعد انطفاء النار المشتعلة . .

13

نجاة شهبندر

قال سندباد :

لم أكن أعرف من لغة النسانيس حرفاً، ولم أكن أظن اننى أفهم منها حرفًا، ولكن الشيخ سمع وفهم وعرف ما يريد النسناس أن يقوله وأجابه إلى ما كان يطلبه؛ ثم أخذ الشيخ يحكى لى ما سمعه فقال هذا النسناس الوحيد الباقى على ظهر الأرض؛ وكان قد رمى نفسه فى الماء مع بعض أصحابه حين رأوا النار تشتعل، فغرقوا جميعاً ونجا وحده !

قلت : وماذا ترى فى شأنه ؟

قال الشيخ : وماذا ترى أنت ؟

قلت : أرى أن نتركه ونمضى !

قال : بل نأخذه معنا، فإنه لا خوف منه الآن وقد هلك أصحابه، ولعلنا نستطيع أن نحمله معنا إلى أرض أخرى، ليتفرج عليه الناس فنكسب من فرحتهم مالاً !

وكان النسناس يسمع ويفهم ونحن لا نظن ذلك، فلما سمع حديث

الشيخ إلى صاح قائلاً : بربكم لا تجعلونى فُرجة، ولكم علىَّ ثمنُ هذا المعروف !

قال الشيخ : وما ثمن هذا المعروف ؟

قال : تعالوا معى !

ثم أخذ يثب أمامنا ونحن نتبعه حنى انحدر من فوق الصخرة، ثم استمر يثب حتى توسطَّ الوادى، ثم انحرف إلى اليمين حتى بلغ طريقًا ضيقًا بين جبلين؛ ثم استأنف الوثب حتى بلغ مغارة أخرى غير المغارة التى تركنا فيها زميلينا؛ ولكننا مع ذلك لم نتردد، ودخلنا . .

وكانت المفاجأة التى تنتظرنا فى داخل المغارة أعظم مما كنت أنتظر . . .

ليس من حق الإنسان أن ييأس من رحمة الله فى لحظة من لحظات عمره، فإن رحمة الله أعظم مما ينتظر أوسعً الناس أملاً وأقواهم إيمانًا ...

إن الله الذى يشق الفجر المنير فى ظلمات الليل الدامس، أعظمُ قدرة مما يتخيَّل كلُّ متخيِّل، وقد آمنتُ بقدرته، وبرحمته، منذ خطوتُ أول خطوة فى داخل تلك المغارة، فرأيت، وماذا رأيت ؟

رأيت إنسانًا من الناس لم أكن أظن أننى سأراه، لا فى هذا المكان ولا فى مكان سواه . . .

رأيت أبى شهبندر !

رأيته حيًا، سليمًا معافى، وكنتأظن النسانيس أكلته وبعثرت عظامه وعرفتُه منذ وقعتْ عليه عيناى؛ ورآنى فلم يعرفنى !

إما أنا فعرفته لأنى قابلته منذ سنوات، فى جزيرة مجهولة كهذه الجزيرة، ولكنه فارقنى قبل أن أعرف انه أبى، وقبل أن يعرف اننى ولده؛ فلما قرأتُ بعد فراقه ما خلف من أوراق مكتوبة، عرفت أنه أبى، فادَّخَرْتُ صورته فى ذاكرتى .

وأما هو فلم يعرفنى لأنه يوم فارقنى لم يكن يعرف أننى ولده؛ بل يكن يظن أن له ولداً؛ فانمحت صورتى من ذاكرته منذ فارقنى. . .

ولما رأيته مائلاً بين يدى بصورته وهيبته وتمام عافيته، ارتميت على صدره وأنا أقول له : أبى ! شهبندر ! الحمد الله على سلامتك يا أبى !

وكانت فرحتى فى تلك اللحظة أقوى من قلبى، فغبتُ عن الدنيا

وفقدت رشدى؛ فلما أفقت بعد لحظات رأيتنى راقداً على الأرض امام المغارة، ورأسى على فخذه، ويده تعبث بشعرى، والشيخ جالس بين يديه يحدثه، والنسناس الحىّ واقف على بُعد ينظر إلينا . . .

ورفعتُ رأسى عن فخذه واستويت جالسًا بين يديه، ثم طوَّقته بذارعى، فجذبنى الشيخ إليه وهو يقول لى : اجلس هادئًا وسامع يا سندباد !

فأرخيتُ ذارعىَّ لأجلس وأسمع؛ ولكن ذراعىْ أبى ظلتَّا تحيطان بى× وكان فى عينيه دموع، وكانت جموع مثلها تنحدر على خدى . . .

ثم أطلقنى أبى من بين ذراعيه، ورفع يده إلى وجهه يجفف دموعه، واسترسل الشيخ يقص قصة كان قد بدأها قبل أن أفيق . . .

وكان الشيخ بعرف بعض قصتى، من طول صحبتى له، فأخذ يقصها على أبى؛ وكان يعرف قصة أبى ويخفيها عنى؛ فبدأ يقصها علىّ . . .

ولما فرع الشيخ من قصتى إلى أبى، ومن قصة أبى إلى، بدأ أبى يتحدث؛ وكا حديثه عذبًا كأنه نسيم السَّحر، هادئًا كأنه حلم ليلة سعيدة؛ وكنت أستمع إليه بكل جوارحى؛ كأن فى كل عضو من أعضاء جسدى أذنًا تسمع . . .

14

رحلات شهبندر

قال شهبندر :

لقد انقطع ما بينى وبين أهلى يا بنى منذ سطا على اللصوص فى طرقى ذات مساء، وأنا عائد من رحلة تجارية رابحة، فسلبونى بضاعتى ومالى ومال عملائى . . .

ولم يكن فى طاقتى أن أتراءى لعملائى وقد طيَّعت ما لهم، فقررت إلا أعود إلا بعد أن أجمع مالاً أسدد به ما على من ديونهم . . .

ثم جاءنى النبأ بأن امراتى ماتت، ولم اعلم حين بلغنى موتها أنها خلفَّفت ولداً، فردانى هذا انقطاعًا عن أهلى . . .

ثم اتخذتُ زوجة أخرى فى بلد آخر، واستبدلت أسة بأسرة وداراً بدار؛ واستمررت فى تجارتى لأجمع مالاً أسدد بخ ديونى . . .

ثم عدت ذات يوم من إحدى الرحلات إلى دارى الجديدة، فإذا النخاسون قد ذهبوا بابنتى شمس زاد، وكانت سلوتى فى غربتى، فخرجت للبحث عنها فيما أعرف من البلاد . . .

وطالت غيبتى ثم عُدت، فرأيتُ الدار خلاء ليس بها أحد . . .

وكنت قد جمعتُ مالاً أستطيع ان أسدد به ديونى وأعيش ما بقى من عمرى فى ستر وتصُّن، فأزمعت عودةً إلى وطنى الأول؛ ولكنى لم أكد أصل إلى دارى حتى تبينَّتُ خيبة المسْعَى؛ فقد رأيت للدار مالكاً جديداً لا يعرفنى ولا يعرف أحداً من أهلى؛ فأيقنت أن الله لم يكتب لى الاستقرار، وأزمعت رحلة جديدة . . .

وصمت شهبندر بررهة ثم عاد يقول :

وعدت إلى الترحال وإلى التجارة، احاول أن أنسى فيهما همومى؛ ثم رمانى القدر إلى هذه الجزيرة، وكاد يكلنى النسانيس . . .

قال سندباد : وكيف نجوت وقد بحث عنك باقرر فلم يجد إلا عظامًا !

فالتفت شهبندر حواليه وهو يقول : باقر ! أنت تعرفه ؟ يرحمه الله !

قال سندباد : إنه حى، بخير وعافية !

قال شهبندر متعجبا : حى ؟ سبحان الله ! لقد بحثتُ عنه حيث كان فلم أجد إلا عظامًا، فظننتُ أن النسانيس اكلوه!

قال الشيخ باسمًا : ما اكلوك ولا أكلوه، وإنما رأى كلٌّ منكما عظامًا، فظنها عظام صاحبه، وكلاكما – برعاية الله – حىّ !

فتنفس شهبندر نفسًا عميقًا ثم قال الحمد لله !

ثم نظر إلى النسناس الواقف على بعُد فقال : وكان هذا النسناس صاحب فضل على، فأعاننى على الإقامة فى هذه المغارة المجهولة وكان يحمل إلى طعامى وشرابى ويحمينى . . .

15

فى أمان الله

قال سندباد :

كان لقائى لأبى مفاجأة غير منتظرة فى تلك الجزيرة؛ فلم اكد أصدق عينى حين رأيته، وخُيل إلى اننى فى حلم من الأحلام لا فى حقيقة؛ فتركته يتحدث وسرحت بخواطرى إلى كل مكان .

وكانت معرفته بأنى ولده مفاجأة لم يكن ينتظرها كذلك؛ ولكنه كان أثبتَ منى جنانًا، فمضى يتحدث إلى وإلى الشيخ فى انشراح وطلاقة، وهو يُرتب كتفى ويضغط على ذترعى بلطف وحنان . . .

وتذكرنا بعد لظة زميلينا باقراً وأبا الإسعاد، وتذكرنا النسناس الوحيد الذى بقى من قومه بعد هلاكهم؛ فخرجنا من المغرة لنذهب إلى زززميلينا، ونحن نطمع أن يصحبنا ذلك النسناس، لنذهب به حيث نذهب ولكنه اختفى عن عيوننا ولم ندر أين راح؛ فلم نأسف كثيراً على رواحه.

ومضينا إلى المغارة الأخرى، حيث تركنا باقراً وأبا الإسعاد، وفى نفوسنا قلق شديد عليهما، وكان الله لطيفًا بهما وبنا، فرأيناهما بخير وقد خفتَّ آلامهما شيئًا ما . . .

وكان فرحهما بلقاء أبى عظيماً، وعجبهما لهذه المصادفة أعظم، ولم يصدق باقر عينيه مثلى، فقد كان يظن أن النسانيس أكلت أبى، فلما رآه مائلاً بين يديه قال : هل بعث الله الموتى ؟

فضحك أبى وقال : قد بعثى من الموت كما بعثك يا باقر !

وعرف باقر مصير النسانيس، فحمد الله على هلاكهم، وقال : أفلم يبق فى الجزيرة كلها غلا ذلك النسناس الواحد ؟

قال الشيخ : نعم وما اظنه يبقى حيًّا بعد هلاك قومه !

قال أبو الإسعاد :لته يبقى ليتفرج عليه الناس !

قال أبى : حرام ! لقد كان نسناسًا طيب القلب، وله على جميل لا انساه؛ وإنى لأتمنى أن أعثر به لأردَّ إليه الجميل !

قال باقر : لستُ آمن له ولا لواحد من جنسه، إنهم جنس شرير !

قال أبى : نعم، ولكنى آسف أشد الأسف على ذهاب ذلك النسناس قبل أن أرد إليه الجميل !

*****

وقضينا تلك الليلة فى المغارة، وتناولنا طعامًا غير شهى من ثمرات ذلك الشجر الكثير وراء باب المغارة، فلما أصبحنا أخذنا نفكر فة طريقة نخرج بها من الجزيرة، ولكن الشيخ قال : أليس من حقنا وقد صارت الجزيرة ملكًا خالصًا لنا أن نجول فى أنحائها لنعرف ماذا فيها من خيرات مخبءة ، لعل الله يعوضنا خيراً بعد الذى لقيناه من التعب والمشقة ؟

ولم أجد فى نفسى حماسة لهذه الفكرة؛ إذ كنت حريًا على التعجيل بالسفر ولكن الشيخ ردنى إلى الحقيقةة حين قال لى : أتظن يا سندباد أننا باقون هنا باختيرنا؟ إننا مكرهون يا بنى على البقاء؛ فهذه جزيرة يحيط بها الماء من كل جانب، ولسنا نملك سفينة نبحر بها فلننتظر حتى يرسل الله إلينا سفينة تحملنا . . .

قال باقر مازحًا : لعل سندباد يعرف طريقة أخرى نبحر بها !

وقال أبو الإسعاد : لعل فى نيته أن يصنع سفينة !

قلت : إنها والله فكرة، لو كنا نملك أدوارت النجارة !

*****

وصبرناعلى البقاء فى الجزيرة حتى يأذن الله بالفرج؛ وكان هواء الجزيرة نقيًّا صافيًا، فساعد على سرعة شفاء باقر وأبى الإسعاد . . .

وكنت انا وأبى والشيخ نخرج كل يوم فى الصباح الباكر للنزهة فى أطراف الجزيرة ومحاولة استكشاف أسرارها؛ ثم نعود فى المساء إلى المغارة لننام ولم نكن نأكل شيئًا غير النبات وثمر الشجر؛ إذ لم يكن فى الجزيرة حيوان نأكل لحمه، فاشتقنا إلى اللحم شوقاً شديدً، ثم بدا لنا أن منعوضَّ من اللحم بالسمك؛ فصنعنا من بعض أشواك النبات صنانير للصيد وجعلنا ذلك تسلية نتسلى بها؛ وكان أبو الإسعاد يزعم انه بارع فى صيد السمك، ولكنه جلس يومين على الشاطئ والصنَّار فى يده فلم يصطد سمكة واحدة، فاعتقدنا أن تلك المنطقة من البحر لا سمك

فها، ولكن أبا الإسعاد لم ييأس، وذهب فى اليوم الثالث إلى الشاطئ، يحاول الصيد كعادته، ونجح هذه المرة فيما أراد، وعلق بالصنار صيد فجذبه من الماء فرحًا . . .

ولكن الشئ الذى علق بالصنار لم يكن سمكة كما ظن بل كان شيئًا آخر عظيم القيمة، وان كان لايعنى عن السمك شيئًا؛ فقد كان صرة مربوطة؛ فلما حللنا رباطها رأينا فيها حديدة قدوم وقبضة ومسامير ومنشاراً، ومصلقة؛ فصاح فرحًا لقد أصطدت سفينة!

وبدأنا منذ الغد نصنع السفينة من خشب الجزيرة !

16

سفينة النجاة !

قال سندباد :

كان لى تجربة قديمة فى صناعة السفن؛ ومن أجل ذلك كان العمل سهلاً على؛ وكانت أشق مرحلة هى قطع الأشجار الضخمة لنشق منها ألوحًا رقيقة نصنع منها السفينة؛ فإن المنشار الذى عثرنا به كان منشاراً صغيراً لا ينفع فى قطع الشجر الضخم، فكنا نقضى وقتًا طويلاً نضرب أصول الشجر بالقدوم، ثم نستخدم المنشار الصغير فى إتمام القطع . . .

ومضت بضعة أسابيع قبل أن نصنع هيكل السفينة، ولم يمض بعد ذلك إلا شهر حتى كانت السفينة كاملة الصورة . . .

ولم يكن يساعدنى فى العمل غير باقر، أما أبى والشيخ وأبو الإسعاد فكانوا يفارقوننا كل يوم فى الصباح الباكر ليستكشفوا أسرار الجزيرة، فلا يعودون إلا بعد الغروب . . .

فلما كملت صورة السفينة، قلت لأبى وصاحبه : قد آن الأوان لنستعد للرحلة . . .

قال الشيخ : وهل فرغتم من كل شئ فى السفينة ؟

قلت : نعم، إلا الشراع

قال أبو الإسعاد : ليس يعنينى الشراع؛ ولكن هل وجدتم الزفت الذى تسُّون بع الثقوب وتلحمون ما بين الألواح ؟

ولم يكن هذا الأمر قد خطر ببالى، فقلت متحيراً : الزفت !

قال أبو الإسعاد موبخًا : نعم، الزفت، أتريد أن نخوض البحر بسفينة غير مزفّتة، فيتسرب الماء من ثقوبها وتغرق ؟

فانكسرت نفسى بعد انتعاش، ووقعتُ فى حيرة شديدة؛ ولحظ أبى حيرتى فأشفق على؛ ولكنه ظل صامتًا فلم ينطق؛ وظل أبو الإسعاد يردد : الزّفت، الزّفت يا سندباد والإ غرقنا !

قال الشيخ متنِّراً : النجارة على سندباد، الزّفت على أبى الإسعاد ! فغضب أبو الإسعاد لهذه النكتة وصاح : أتقول علىَّ الزفت !

ولمح أبى بوادر الخصام بينهما فقال : على لأنا . . . فلا تتخاصما !

ومضت لحظة صمت، ثم نهض أبى وهو يقول : الّفت أعظم شئ قيمة، بل إن له الآن كل القيمة، وليس لشئ غيره قيمة !

ثم قام فغاب عنا لحظة، ثم عاد يقول : وجدتُ الزفت، وستكون السفينة – إن شاء الله – على أهبة الرحيل بعد أيام . . .

فلما كان صباح الغد لم يذهب أبى مع الشيخ وأبنى الإسعاد كعادته، بل ظل معى حتى ذهبا، ثم قال لى : أصحبنى أنت وباقر

لنبحث عن شئ مثل الزفت نسدّ به ثقوب السفينة . . .

ثم مضى ومضينا معه، حتى انتهينا إلى مجموعة كثيفة من الشجر تشبة الغابة الصغيرة، فوقف ووقفنا معه، فأشار إلى مجموعة من الشجر وهو يقول : من هذا الشجر نسطيع أن نأخذ شيئاً يغنى عن الزفت .

ثم مال على شجرة منها فوخزها وخزة، فسال منها سائل أبض يشبه اللبن لم يلبث أن جمد على القشرة؛ فقال : هذ نوع من الصمغ يمكن أن نسد به ثقوب السفينة؛ فهل عندكك وعاء كبير يا سندباد ؟

قلت : نعم، عندى قدر كبير كانت فى قصر أمير النسانيس، لعلها تصلح لهذا الغرض .

ثم ذهبت فغبت لحظة، وعدت أحمل تلك القدر على رأسى، فوضعها أبى فى أصل شجرة من ذلك الشجر، ثم أحدث فى ساقها ثقبًا، امتلأت به وفاض على جانبيها، فقبض أبى قبضه من طين فسدّ الثقب فى ساق الشجرة، ليحبس فيها السائل ثم انحنى على القدر ليحملها ولكتى سبقته إليها، فوجدتها ثقيلة؛ فتعاونت مع باقر على حملها إلى مكان السفينة؛ فقال لى ابى: الان تستطيع أن توقد ناراً تحت القدر لتذيب ذلك الصمغ، ثم تسد به ثقوب السفينة . ز .

وصنعتُ انا وباقر كانوناً كبيراً، ثم وضعنا عليه القدر، وأشعلنا تحتها النار حتى ذاب الصمغ، ثم اخذنا نصب الصمغ الذائب فى

الثقوب، فلا يكاد يمر به الهواء حتى يجمد الغراء، فيلحم ما بين الألاح ويكسو الخشب طبة صلة لا ينفذ منها الماء . .

فلما عاد أبو الإسعاد والشيخ فى المساء، استقبلناهما فرحين، ثم اخبرناهما بما فعلنا، فانبسط أبو الإسعاد وقال : حسنا فعلتم . . .

ثم ألقى بين أيدينا شيئا كان يحمله، وقال لنا : وحسنًا فعلنا نحن أيضاً !

فنظرنا إلى ذلك الشئ الذى القاه بين أيدينا، فإذا هو طائر ذبيح كان قد اطاده، ففرحنا به فرحًا عظيما، ثم صنعنا منه وليمة وتعشَّينا عشاءً فخمًا فيه لحم، ثم تهيَّأنا للنوم . . . .

17

عودة النسانيس

قال سندباد :

واتفقنا على أن نستعد للرحلة فى الصباح الغد، فجمع كلٌّ منا ما كان يحرص عليه من متاع، وجعلناه فى جوف السفينة، ونمنا نومًا سعيداً هانئًا فى انتظار الصباح . . .

ثم استيقظنا مبكرين، وأسرعنا جميعاً إلى السفينة وفى ظننًّا أننا نستيطع أن نجرها بسهولة إلى الشاطئ، ولكن املنا خاب حين وجدناها ثابتة على الأرض فلا نكاد نستطيع تحريكها . . .

وأشار علينا أبو الإسعاد ان نفتل حبلاً غليظًا قويًا، ونربطه بها ثم نجرها؛ فأعجبتنا الفكرة، وقضينا سائر يومنا ونحن نجمع ما تيسرَّ من ألياف الشجر لنصنع منها حبلاً، ثم أوينا إلى مضاجعنا لنستأنف العمل فى الصباح الباكر بنشاط، فنفتل الحبل ثم نربطه بالسفينة ونتعاون على جرّها إلى الشاطئ . . .

فلما أصبحنا، جلس أبو الإسعاد يفتل الحبل، وجلس الشيخ بين يديه يساعده، أما أنا وأبى وباقر فأخذنا ننظف الأرض ونسويها فى

الطريق الممتد بين السفينة والشاطئ، حتى لا تنعها عقبة من الانزلاق بسهولة إلى الماء؛ فبما أتممنا تنظيف الأرض وتسويتها، رأى باقر أن يرشها بالماء حتى تتوحَّل، ليساعدها الوحل على النزلاق، فما زال يرش الأرض بالماء حتى صارت كالصابون .

ولم يلبث أبو الإسعاد ان فرغ من فتل الحبل، فربطناه بمقدم السفينة، ثم جعلنا فى طرفه عروة كبيرة نمسكه منها، واستعددنا للجرّ . . .

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب، فاقترح أبى أن نستريح يومنا ونتهيأ لستءناف العمل فى الصباح؛ ولكن أبا الإسعاد صاح به: كفى تأخيراً، فلنجرها الآن إلى الشاطئ، لنبيت فيها ليلتنا ونبحر فى الصباح.

فأطعنا رأيه، وأمسكنا بعروة الجبل نجذبه ثم انجرت؛ ولكنها لم تكد تنتقل من مكانها حتى بدأنا نشعر بالوحل تحت أقدامنا كأنه رغوة صابون،

ولم يلبث أبو الإسعاد أن زلق، فوقع على وجهه فى الوحل وجرنا وراءه ثم نهضنا ولم نكد،ولكن بعد أن تلوثت ثيابنا وأيدينا ووجوهنا . . .

وآمَنَّا بعد هذه الزُّحلوقة أن من الخير الانتظار إلى الصباح حتى يجف الطين؛ وعدنا إلى الأرض الجافة حيث افترش كل من بعض ثيابه ونام . . .

وما كان أشد دهشتنا حين استقيظنا فى الصباح فلم نجد الحبل خيث تركناه ولم نجد السفينة حيث كانت، ورأينا آثار جرها على الوحل، فلم نجر من فعل ذلك قبل أن نستيقظ . . .

ومشينا على آثار السفينة إلى الشاطئ، ولكننا لم نجد لها أثراً . . .

أين ذهبت سفينتنا الغالية التى بذلنا فى صنعها جُهْد الأيام والليالى حتى أتممناها ؟ من أخذها . وأين اختفى بها ؟ وكيف نعثر عليها ؟

قال أبو الإسعاد : النسانيس هم الذين أخذوها واختفوا بها ليبحروا على ظهرها إلى جزيرة أخرى، ولن نعثر عليها بعد، ولن نجد!

قال الشيخ : لقد هلك النسانيس جميعاً فليس منهم على ظهر هذه الجزيرة نسناس !

قال أبو الإسعاد وهو يتلفَّت حواليه خائفًا : النسانيس ما زالوا أحياء يتربصون بنا الشر، لقد سرقوا سفينتنا اليوم، وغداً يسرقون أوراحنا !

قال أبى فى هدوء : لا تظلموا النسانيس؛ إن الذين سرقوا سفينتكم من البشر لا من النسانيس؛ انظروا إلى آثار أرجلهم فى الوحل؛ إنها أرجل بجمية لا أرجل نسانيس؛ هاتان قدمان، وهاتان قدمان أخريان وهذه أقدام كلب؛ لقد كان معهم كلب . . .

قال الشيخ وهو ينظر معه إلى آثار الأقدام فى الوحل : صدقت يا شهبندر؛ هذه أقدام نشر لا أقدام نسانيس؛ فمن هؤلاء ؟ وماذا جاء بهم إلى هذه الجزيرة ؟ ولماذا سرقوا سفينتنا وتَوَاروا بها ؟ إن شراً مما نتوقع، يتربَّص بنا فى هذه الجزيرة الملعونة . . .

18

أحفاد شهبندر !

قال سندباد :

كان اختفاء السفينة عجيباً ومريباً وباعثاً على القلق والخوف والحيرة؛ ولكن قلقنا وخوفنا لم تلبث أن زالت وحل محلها عجب ودهشه؛ إذ لمحتُ كلبى " نمرود " مقبلاً من بعيد؛ فلم يكد يرانى حتى وثب إلى وتعلق برقبتى وأخذ يلعق وجهى بلسانه؛ ثم نام على كتفى آمناً مستساماً كما ينام الطفل على كتف أمه . . .

وكيف وصل نمورد الساعة إلى هذا المكان، وقد فارقتُه منذ عام أوو أكثر من عام على بُعد آلاف الأميال من هذه الجزيرة ؟

ثم رأيت شخصًا مقبلاً من بعيد؛ فلم أكد أتبين ملامحه حتى اندفعتُ إليه صائحًا : صفوان ! يا عزيزى صفوان !

وكان أبو الإسعاد قد أوتر قوسه حين رآه مقبلاً من بعيد، ليرميه بسهمه؛ ولكنه رآنى أندفع إليه باسطًا ذراعًى للعناق، فالقى قوسه وسهمه وظل واقفًا فمكانه ينظر إلينا فى عجب ودهشة . .

وقبل أن أفيق من أثر المفاجأى لمحتُ على الطريق ثلاثة شخوص

تقترب، فهممت أن أسبق إليهم لأتبين أمرهم؛ ولكن صفوان أمسك بذارعى فردَّنى إلى مكانى وهو يقول : انتظر يا سندباد . . .

ولكنى أم أطق صبراً؛ فاندفعت إليهم صائحا : هلهال !

وسمعت أبى ورائى يهتف باسم جاسر، ثم يندفع إليه . . .

اما الشخص الثالث فكان " بلخير " زوج اختى قمرزاد . . .

با لها من مفاجأة عجيبة ! كيف اجتمع هؤلاء الأربعة من أصدقائنا وأهلنا فى هذه اساعة على أرض الجزيرة قبل أن نفارقها بساعات ؟

أهم الذين أخذوا سفينتنا وأخفَوْها عن عيوننا لئلا نبحر على ظهرها قبل أن يلقون ؟ فمتى وصلواإلى الجزيرة ؟ وماذا كانوا يركبون ؟ وعلى اى شواطئ الجزيرة هبطوا ؟ وأين أخفوا سفينتنا؟

ووقفنا نتبادل القُبُلات والعناق، وعلى كل فم سؤال لا يجد جوابًا، والأصوات مختلطة متداخلة فلا يكاد يفهم أحدٌ من أحد حرفًا . . .

ولكن بلخير رفع صوته فوق أصوتنا وهو يقول : لا يجوز أن نترك قمر زاد تنتظر فى قلق أكثر من ذلك، إننى ذاهب إليها . . .

فرد أبى ملهوفًا : قمر زاد ؟

ثم اندفع إلى بلخير فتشبَّث بذراعه قائلاً : نذهب إليها . . .

فتشبَّثتُ بهما قائلاً : أين تنتظر قمرزاد ؟

قال بلخير : لقد تركناها تحرس السفينة؛ فاتبعونى إن شئتم !

ثم مضى مسرعًا ومضينا وراءه حتى بلغنا شاطئًا آخر بعيداً . . .

ولم تكن قمرزاد تحرس سفينة واحدة على ذلك الشاطئ، بل سفينتين؛ ولم تكن وحجها فى حراسة السفينتين، بل كان شخص آخر لا نعرفه ولا يعرفنا؛ فلم تكد قمرزاد ترانا مقبلين من بعيد حتى وضعته عن كتفها وأسرعت إلينا . . .

وأقبلتْ تحضننى وهى تقول فرحة باكية أخى سندباد !

فانتزعها أبى من بين ذراعى وهو يقول بحنان : أبنتى قمرزاد !

وأسرع بلخير إلى السفينة فحمل بين ذراعيه، ثم أسرع إلى أبى فدفعه إليه وهو يقول : حفيدك " خير " يا عمى، ابن قمر زاد !

وكف الطفل عن البكاء بين ذراعى جده، ورفَّت على شفتيه ابتسامة !

وشعرتُ بالسعادة تملأ كل جوانب نفسى، فقلت باسمًا : اليوم قد اجتمعت أسرة شهبندر جميعاً إلا ثلاثة نفر، نرجو أن يجتمع شملنا بهم فى خير وسعادة ؟

قال صفوان ضاحكصا : إنهم أربعة نفر لا ثلاثة يا سندباد !

قلت : من تعنى ؟

قال : ألسست تعنى شمس زاد ، وأمها ، وعمتها ؟

قلت : بلى !

قال صفوان : ولكنك لم تذكر عضواً رأبعاً من أسرة شهبندر، هو طارق بن صفوان !

قلت مدهوشًا : ابنك ؟

قال : نعم ابنى وابن أختك شمس زاد !

وقال جاسر : ما كان أجدر شهبندر بأن يكون جداً لأكثر من حفيدين، لو أراد سندباد !

قال سندباد :

وفهمتُ ما يعنية جاسر، فأطرقتُ خجلاً؛ وقال أبى وهو يربت كتفى بحنان: هل تريد يا سندباد ؟

فلم أجب، ووأجابت عن قمر زاد فقالت : ذلك أمل عزيز تنتظره عمتى مشيرة، وينتظره ولدى " خير " ، لتكون له بنت خال لطيفة رقيقة، تشبه أخى سندباد لطفًا ورقة !

19

رحلة جاسر . . .

قال سندباد :

ثم جلس جاسر يقص علينا أنباء رحلته فقال :

أتذْكر يا سندباد رسالة كتبتها إليك منذ أكثر من عام، وقلتُ لك فيها إن أباك . . .

قلت : نعم، وقد أشعلتْ تلك السطور القليلة فى قلبى ناراً وهاجت فى نفسى عاصفة من الفكر؛ فلم أجد سبيلاً للخروج من حيرتى غير الاستعداد لرحلة جديدة، رَجوْت أن تكون آخر رحتى فأهتدى إلى مكان أبى . . .

قال جاسر : الحمد الله، فقد استجاب لرجائك فجعلها آخر رحلاتك، وهداك إلى مكان أبيك . .

ثم التفت إلى أبى وقال : واستجاب الله لرجاء أبيك، فجمع شمله باحبابه جميعاً؛ ليستقر بعد قلق ويهدأ بعد عناء . . .

ولمحت دمعتين تبرقان فى عينى أبى ثن تقطران على خديه . . .

واستطرد جاسر يقول : وقد خمنَّتُ انك سعود إلى عَدنَ، لتبدأ

البحث منها؛ ومكثتُ فيها أسابيع انتظر مقَدمَك؛ وكان أبوك لم يزل – كعادته – ينتقَّل بين موانى البحر والمحيط للتجارة، وأنا أتتبع حركاته حيث يذهب، لأصحبك إليه حين تجئ؛ لكنك لم تجئ . . .

وقلقت، وكان قلقى من اجلك، ومن أجل أختى أم شمس زاد ومن أجل شمس زاد نفسها . . .

وكان فى ميناء عدن سفينة على نية الإبحار إلى وطنك، فركبتُها، وساعدتْنا الريح فوصلنا بعد أيام قليلة؛ ولكنى لم ألقك هناك؛ وعلمتُ أنك سافرت منذ أسابيع إلى حيث لا يدرى أحد . . .

وأقمت فى ضيافة عمتك أيامًا سعيدة، لقيتُ فيها من كرمها ومن كرم قمر زاد وزوجها ما لا أنساه . . .

وعرفتُ فى تلك الأيام صديقك صفوان، فعرفتُ فتىً كريماظص شهمًا، يفرض على كل من يعرفه أن يحبه ويحترمه؛ فبما تقدم إلى يخطب ابنة أختى شمس زاد لم أتردد فى القبول؛ فقد كانت هى وأمها – مثلى – يحبانه ويحترمانه !

ثم تهيأتُ للرحلة إلى عدن . . .

وصمت جاسر برهة وهو يتصفَّح وجوهنا، ثم استطرد : وكان صفوان – منذ صار صهراً لنا – يُر على أن يصحبنى فى الرحلة إلى عدن، وإلى ما وراء عدن، للبحث عن صديقه سندباد وعن صهره شهبندر . . .

وأصر بلخير مثل إصرار صفوان على أن يصحبنا؛ وكانت قمر زاد تحمل فى بطنها جنيناً، فلما علمت بنيَّة زوجها على الرحيل معنا خطرتْ فى نفسها وساوس وتوهَّمتْ أوهامًا فأصرت على أن تكون معنا كذلك ليرى وليدها أباه بلخير أول من يرى . . .

وكادت شمس زاد تقول مثل قول قمر زاد وكانت مثلها تحمل جنينًا؛ ولكن أمها قالت لها " ولمن تتركين عمتك مشيرة وتتركينى ؟ "

فرضيت أن تبقى؛ وبقى معهن بهلول . . .

فبما كان اليوم المحدد لبدء الرحلة، حضر هلهال زائراً، فعلم بنيتّنا؛ فأصر على صحبتنا . . .

ووصلنا إلى عدن؛ وكنت أقدر أن ألقاك فيها أوسمع خبراً عنك؛ ولكنى لم ألقك ولم أسمع أخباراً عن شهبندر . . .

وأحسست قمر زاد بآلام المخاض فى عدن، ثم ولدتْ خيراً . . . وكان يوم ميلاده أشق يوم على؛ فقد علمت فى ذلك اليوم أن السفينة التى كان يركبها شهبندر قد حطمنها الأمواج بالقرب من جزيرة النسانيس . . .

وكتمت بعض الخبر عن أصحابى وكشفتُ بعضه؛ إشفاقًا عليهم من القلق والمخاوف . . .

وتهيأنا جميعاًا للرحلة إلى حزيرة النسانيس لإنقاذ شهبندر؛ ولقينا فى الطريق أهوالاً قبل أن نصل إليها؛ ولكن الهول الذى كنا نتوقع أن نلقاه فى جزيرة النسانيس كان – قى تقديرى – أشد من كل هول لقيناه فى

الطريق؛ فأعددتُ نفسى وأصحابى لكل طارئ . . .

وبلغنا شاطئ الجزيرة فى أول الليل، فأرسنا سفينتنا، وهبطتُ انا وصفوان على حذر وخوف؛ ولم نلق فى طريقنا غير نسناس واحد فتريَّثْا له حتى صار قريباً منا، فوثبنا إليه . . .

فقاطعه شهبندر قائلاً : ماذا فعلتم به ؟

قال جاسر : قبضنا عليه وسقناه إلى السفينة فربطناه فى ساريتها، ثم عدنا إلى الشاطئ لنبحث عن أثر يدلنا عليك أو على أحد من أصحابك . . .

وقاطعه أبى مرة أخرى فقال وهو يتهيأ للقيام : أريد أن أرى ذلك النسناس !

قالت قمر زاد : لقد ذهب، فك رباطه ووثب فى الماء، فلما استيقظنا فى الصباح لم نجد له أثراً قال أبى آسفًا : يا خسارة !

وتبادلنا نظرات، ثم استأنف جاسر حديثه فقال : ورأينا سفينة أخرى على الشاطئ مهيأة للايجار؛ فقوى أملنا فى لقاء شهبندر وأصحابه، ولم نلبث أن رأيناكم، وكنتم نائمين والظلام من حولكم، فلم نعرفكم . . .

وخفنا أن تستيقظوا، فتنشب بيننا معركة فى الظلام؛ وخفنا ظان نترككم نيامًا فتسيقونا إلى الإبحار قبل أن نلقاكم ونتحدث إليكم؛ فراينا ظان نستولى على السفينة ونترككم نائمين؛ فإذا جاء الصباح جيناكم مستعدين . . .

ثم ربطنا سفينتكم بحبل إلى سفينتنا، فسبحت بها إلى شاطئ بعيد ثم أرسينا السفينتين . . .

وأخذنا نفتش أمتعتكم فى السفينة لنعرف بعض خبركم فعثرنا على صره فيها بعض ثياب سندباد . . .

قلت : قد عرفنا تمام القصة يا جاسر فشكر الله لكم هذا الفضل !

قال جاسر : ولكنك لم تعرف يا سندباد أن أكبر الفضل فى العثور عليكم لنمرود؛ فهو الذى دلنا على مكانكم فى ظلام الليل، وهو أول من لقيكم فى ضوء الصبح !

الخاتمة

قال سندباد :

وقضينا مع أهلنا فى الجزيرة يومًا بخر؛ وكان معهما لحم وزبد وجبن وبيض؛ فصنعنا وليمة فخمة ضخمة؛ ثم اوينا إلى سفينة جاسر، حيث قضينا ليلة ساهرة سعيدة . . .

وكان فى نيتنا أن ننتقل إلى سفينتنا فى الصابح، لتمشى السفينتان متجاورتين؛ ولكننا اكتشفنا أن سفينتنا قد تسري الماء إلى قاعها من بعض شقوق صغيرة لم نلتف إليها؛ فتقلنا متاعنا إلى السفينة الأخرى وأبحرنا جميعًا على ظهرها . . .

وكان بين الأمتعة كثيرة مما عثرنا عليه فى الجزيرة ، وكان بنها كذلك ذخائر أبى التى كان يَخبـَبؤها فى مغارته؛ ولم أكن رأيتها قبل إبحارنا؛ فلما رأيتها عرفت أى ثروة يملك، وسألتُ الله أن يعمى عنا عيون قراصنة البحر حتى نصل إلى وطننا سالمين . . .

وكان البحر هادئاًا، فلم نلق فى طريقنا نصبًا ولا مشقة؛ ووصلنا بعد أيام قليلة إلى ميناء عدن، ففارقنا الشيخ وباقر ودًعوًا لنا بالسلامة.

وقضينا ليلة فى ميناء عدن، فلما أشرق الصبح بحثنا عن جاسر فلم نجده، ووجدنا رسالة منه إلى أبى يقول فيها :

" وددت لو بقيتُ معكم إلى آخر عمرى، ولكن الوطن غال فلستُ أطيق أن أفارقه فراق الأبد؛ ومن أجل ذلك قررت أن أعود إلى البحرين من هذا الطريق؛ وقد كان الوفاء يفرض على أن أودعكم قبل أن أفارقكم، ولكن لحظة الوداع أليمة؛ فاعذرونى، واذكرونى، واحملوا تحيتى وأشواقى إلى أختى وبنت أختى وولدها طارق، والله يرعاكم !"

وكان أثر هذه الرسالة فى نفوسنا أشد إيلامًا من كل ما تخيَّل جاسر من آلام لحظة الوداع . .

وايتأنفت السفينة سيرها تريد أسمرة، ونحن واجمون حزانى لا يتحدث أحد ممنا إلى أحد؛ثم نزل أبو الإسعاد ليستأنف فى وطنه حياة جديدة سعيدة؛ فأنشأ فراقُه فى نفوسنا آلامًا جديدة . . .

ومضت السفينة فى طريقها؛ فلما صرنا على مسيرة يومين من أرض الوطن، انتبهت عواطفنا فجأة إلى أحبابنا الذين يشتاقون إلينا ويتمنون لقاءنا بقدر ما نشتاق إليهم ونتمنى لقاءهم، وتراءت لنا صور الأيام السعيدة المقبلة بين أهلينا وأحبابنا على أرض الوطن الغالى؛ فلم يغمض لأحد منا جفن منذ تلك الساعة . . .

وكانت الساعات الأخيرة فى الرحلة طويلة مملولة؛ فلولا الأخيلة السعيدة التى كانت تتراءى لنا فى تلك الساعات لفاضت نفوسنا من شدة الضيق والملل؛ ثم وصلنا، وسبقَنا شهبندر ليطرق باب داره . . .

واجتمع فى دارنا السعيدة شمل أسرة لم يجتمع لها شملٌ منذ بضع عشرة سنة، ورفرفت راية السعادة على كل من أظله سقف الدار .

وكان اكثرنا شعوراً بهذه السعادة عمتى مشيرة؛ فلم تكن فى نظرى يومئذ عجوزاً فى السبعين، بل كانت طبيَّة مرحة تسبه شمس زاد وقمر زاد؛ وكان شعورنا يسعادتها يضاعف شعرونا بسعادة هذا اللقاء . . .

اللهم إننا نحمدك ونشكرك، ونسألك أن تُديم علينا هذه السعادة . . .

اللهم آمين !

[تمت رحلات سندباد]

الفهـــــرس

الصفحة

صلة الماضى ---------- 5

المد والجزر ---------- 7

ذئبان يتصرعان ---------- 13

عواء كلب ---------- 17

فريسة الذئاب ---------- 20

وجدت الكنز ---------- 27

ثمن الكنز ---------- 31

جزيرة النسانيس ---------- 37

مغامرة فى الجزيرة ---------- 48

معركة النسانيس ---------- 57

النجـدة ---------- 61

أمير النسانيس ---------- 67

آخرة النسانيس ---------- 73

نجاة شهبندر ---------- 79

رحلات شهبندر ---------- 83

الصفحة

فى أمان الله ---------- 85
سفينة النجاة ---------- 89
عودة النسانيس ---------- 93
أحفاد شهبندر ---------- 97
رحلة جاسر ---------- 101
الخاتــمة ---------- 106